الإعاقة كابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين

(دراسة تحليلية فى ضوء القرآن الكريم)

إعداد

أ.د/ جابر محمود طلبه

أستاذ ورئيس قسم رياض الأطفال بكلية التربية

مدير مركز رعاية وتنمية الطفولة

جامعة المنصورة

مجلة رعاية وتنمية الطفولة - جامعة المنصورة

العدد (٣) – المجلد (١) – ٢٠٠٥م

الإعاقة كابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين
(دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم)

هدفت الدراسة إلى توضيح مفهوم الإعاقة كابتلاء الهى باعتبارها قضية إيمانية لدى الإنسان ، فالابتلاء بالسراء يتطلب الشكر الجزيل والمحافظة على النعمة، والابتلاء بالضراء يتطلب الصبر الجميل ورفع البلاء قدر الاستطاعة ، وذلك تمحيصاً للقلوب واختباراً للصدور واستبياناً لطبيعة النفوس من جودة أو رداءة ، قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء / ٣٥) .

كما يوضح البحث مفهوم الإعاقة الحقيقية وكذا خصائص الابتلاء وأنواعه، إضافة إلى توضيح حكمة الابتلاء بالسراء والضراء ، وكذا قانون الابتلاء وموقع الإعاقة من مبادئ هذا القانون.

وأخيراً يطرح البحث رؤيته التربوية فى مساعدة اسر الأطفال المعوقين على مواجهة الابتلاء بالإعاقة ، من أجل استثمار هذا الابتلاء لدى أطفالهم المعوقين توافقاً فى الحياة الدنيا وفوزاً بنعيم الجنة فى الحياة الآخرة.

الإعاقة كابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين
(دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم)

قال تعالى في القرآن الكريم :

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (البقرة / ١٥٥-١٥٧) .

الإطار العام لقضية الدراسة وأهدافها البحثية

تقديم:

تعد الإعاقة – بأنواعها المتعددة ودرجاتها المختلفة – نوعا من أنواع الابتلاء التي تصيب بعضا من بني الإنسان في الحياة الدنيا ، قد كتبها الله سبحانه وتعالى اختبارا لما في الصدور وتمحيصا لما في القلوب من إيمان ورضا واحتساب وصبر على البلاء أو كفر وسخط وضجر ويأس وقنوط مما أصاب الإنسان من ضراء ، ولا يعني ذلك أن الابتلاء بالإعاقة يمثل عقابا أو عذابا أو شرا أو إيذاء لبني الإنسان ، ولكنه يمثل حكمة إلهية لفرز معادن النفوس الإنسانية والوقوف على جودتها أو رداءتها ، كما أن الإعاقة – كابتلاء – تمثل أقدارا إلهية لا ترد قد كتبت في اللوح المحفوظ في الملأ الأعلى لحكمة يعلمها الله تعالى وتجهلها الإرادة الإنسانية ، ولكنها قابلة للطف فيما جرت به المقادير ، بالصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع ، وإخلاص الدعاء بالتضرع إلى المولى الكريم لكشف الضر بمشيئة الله سبحانه وتعالى

قال تعالى : (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) (البقرة /٢٨٦) .

كما أن التعامل التربوي الجيد مع قانون الابتلاء يتطلب الشكر على ابتلاء الخير والصبر على ابتلاء الشر ، والصبر ليس معناه الضعف واليأس والاستسلام والحزن والقنوط ولكن معناه الإيمان والعمل والتماسك والتحمل والأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله ، وعلى الإنسان أن يدفع البلاء ويعمل على إزالته حسب قدراته وطاقاته وإمكاناته ، والتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى لكشف الضر الذي حل بالإنسان في نفسه أو أهله أو ماله ، مصداقا لقوله تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) (البقرة / ١٨٦) ، وقوله تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (غافر /٦٠) ، (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون) (النمل / ٦٢) .

ليس هذا فحسب ، ولكن إذا كان الابتلاء من السنن الإلهية الماضية الحادثة الباقية في بني الإنسان على مر الزمان وحتى يوم الدين ، على ما يدل عليه قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء / ٣٥) ، فإن الابتلاء يتطلب من الإنسان المؤمن الثقة في الله تعالى العزيز الحكيم ، والشكر الجزيل على ابتلاء السراء والصبر الجميل على ابتلاء الضراء , ليحظى الإنسان المؤمن الصابر بلطف الأقدار وإدراك الأسرار وكشف الأضرار في الحياة الدنيا ، مصداقا لقوله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين)

(الأنبياء/٨٣-٨٤) . وليحظى المؤمنون الصابرون على ابتلاء الضراء والدافعون لمضاره قدر الاستطاعة بحسن ثواب الآخرة والفوز بنعيم الجنة المقيم ، جزاء لصبرهم على الضراء ، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل / ٩٦) ، (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) (الإنسان / ١٢) .

وعلى الرغم مما سبق توضيحه عن الإعاقة كابتلاء يتطلب الصبر الجميل عليها وعلى تبعاتها الحياتية ، إلا أن ميلاد أو اكتشاف طفل معوق في الأسرة في إطار ثقافتنا العربية ، له ملامحه الكابوسية المأساوية المزمنة وردود أفعاله الوالدية والأسرية والمجتمعية السلبية ، باعتبارها – أى الإعاقة – صدمة عنيفة ومأساة مروعة تزلزل كيان الأسرة هما وغما وحزنا على ما آل إليه أمر الطفل وضياع أحلامها الوردية في وجود طفل مثالي من الناحية البدنية والعقلية ، الأمر الذي يمكن توضيحه – لأغراض الدراسة – في الأبعاد التالية :

أ- الإعاقة وزيادة ضغوط القيود المجتمعية على أسر الأطفال المعوقين

يعاني الأطفال المعوقون وأسرهم المبتلاة في ثقافة المجتمع العربي ، من ردود الأفعال السلبية التي يصنعها هذا المجتمع ويحاصر بها هؤلاء الأطفال وأسرهم في دوائر من الوصمات الاجتماعية والوجدانية البغيضة ، كالتدني والسخرية والإساءة والإهمال التي تسبب لهم ألما وبؤسا ويأسا دون ذنب جنوه أو إثم اقترفوه ، وعلى هذا فإن ثقافة المجتمع تصنع قيودا مقيتة تلف حياة هؤلاء الأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاه ، وتنغص عليهم العيش الكريم دون القدرة على الخلاص منها في الأفق القريب ، ما لم يتغير المجتمع إلى الأفضل في رؤيته تجاه الإعاقة وأصحابها من الأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاه .

ب - الإعاقة وزيادة مستوى الضغوط النفسية لدى أسر الأطفال المعوقين

على الرغم من أن هول الصدمة المفاجئة غير المتوقعة لميلاد أو اكتشاف طفل معوق لدى معظم الأسر في ثقافتنا العربية ، تختلف من أسرة إلى أخرى طبقا لدرجة الإيمان والوعي الثقافي والوضع الاجتماعي والاقتصادي ، إلا أن معظم الآباء والأمهات – في مثل هذه الأسر – يعانون من مشكلات نفسية متعددة ، حيث يظهر اليأس والأسى والحزن والوجوم باديا على وجوههم التي تكاد تقطر ألما وحسرة وتندرا ، كما أن مثل هذه الأسر المبتلاه بإعاقة أحد أطفالها تتعرض لضغوط نفسية رهيبة قد تنوء بها الأحمال وربما الجبال ، وقد تزداد هذه الضغوط النفسية لدى هذه الأسر بازدياد شدة وحدة الإعاقة وخطورتها على مستقبل الطفل المعوق .

ج- الإعاقة وارتفاع مستوى التشاؤم والاكتئاب لدى أسر الأطفال المعوقين

إن ميلاد – أو اكتشاف – طفل معوق في معظم الأسر العربية يجعلها في حالة من الارتباك ، والرفض ، والتشكك ، والإنكار، والسخط ، والجزع ، وعدم الرضا والقنوط ، على خلفية التوقع السيئ للأحوال القادمة وعدم التحسن في مستقبل طفلها المعوق ، مما يجعل الوالدين ينتظران حدوث الأسوأ حيث تسود في وجهيهما الحياة دون البوح بالأحزان وهم لها كاظمون ، بل ربما يتوقعان الفشل الذريع في أداء الطفل وسلوكه عندما يكون وحيدا في مواقف الحياة ، وعلى هذا فإن ارتفاع مستوى التشاؤم (Pessimism) والاكتئاب لدى أسر الأطفال المعوقين ، ينبغي تداركه وعلاجه قبل أن يستفحل أثره ويتمكن من افتراس هذه الأسر المبتلاة.

د-المجتمع والإساءة الوجدانية والإهمال تجاه الأطفال المعوقين

يتعرض الأطفال المعوقون في ثقافة المجتمع العربي – لكونهم معوقين – إلى العديد من الإساءات الوجدانية والإهمال (Emotional abuse neglected) في صورها اللفظية وغير اللفظية التي قد تحدث جروحا نفسية لا شعورية غائرة في نفوس الأطفال المعوقين وأسرهم يصعب محوها ، وتأتي تلك الإساءة الوجدانية – التي تسمم مفهوم الذات لدى هؤلاء الأطفال – في أشكال متعددة كالنبذ ، والتجاهل ، والشجب ، والعزل ، والاتهام ، والاستخفاف ، والتحقير ، والازدراء وغيرها ، كما أن تلك الإساءة والإهمال الوجداني قد تمثل نتيجة طبيعية لوجود مشاعر سلبية قوية وخبرات أبوية سيئة تجاه هؤلاء الأطفال المعوقين .

هـ -الاعتقادات الخاطئة عن الاعاقة وتأثيراتها السلبية على أسرة الطفل المعاق

قد يزداد الطين بله لدى بعض هذه الأسر المبتلاه التي ولد – أو اكتشف – لها طفل معوق ، خاصة حين يشيع بين هذه الأسر اتجاهات نفسية سلبية واعتقادات شعبية خاطئة حول معنى وأسباب الإعاقة وطبيعة المعوقين ، وما لهذا من انعكاسات سلبية على حياة الطفل والأسرة ومنها :

١- الاعتقاد الخاطئ – وفقا لمنطق العقل البشري القاصر – أن الإعاقة من المصائب التي تحل بالإنسان دون إدراك حكمة المشيئة الإلهية فيما جرت به المقادير من ابتلاء المضار ، ودون إدراك أن الإعاقة – كابتلاء – تقع دون إرادة من الإنسان في حدوثها ، فالإنسان فيها مسير لما جرت به مقادير المشيئة الإلهية .

٢- الاعتقاد الخاطئ – وفقا لمنطق العقل البشري القاصر – أن الإعاقة تمثل نوعا من أنواع العذاب أو العقاب أو الجزاء السلبي لأسر الأطفال المعوقين على شر فعلوه أو إثم اقترفوه في الحياة الدنيا ، وأن الإعاقة التي حلت بأحد أطفالهم تمثل

قصاصا وانتقاما من هذه الأسر في الحياة الدنيا ، وحاشا لله سبحانه وتعالى فيما يعتقدون إن يقولون إلا كفرا وافتراءً .

٣- الاعتقاد الخاطئ – وفقا لمنطق العقل البشري القاصر – أن بعض أشرار الناس قد سخروا عفاريت الجن والإنس ، ليفعلوا فعلتهم الشريرة في الطفل انتقاما من الآباء والأمهات ، فأصابوه بالصرع أو العمى أو الصمم أو البكم أو التخلف أو نحو ذلك من الإعاقات ، وفقا لنوعية (الأعمال) الشيطانية التي كتبت (كأعمال سفلية) لهؤلاء الأطفال المعوقين كما يعتقدون .

٤- – الاعتقاد الخاطئ – وفقا لمنطق العقل البشري القاصر – بأن التردد في قبول الزواج من الأب أو الأم قبل الزواج ، والذي تم على مضض من بعض أو كلا الطرفين إرضاء للأسر ، التي اختارت للعروسين على غير رغبة واقتناع أو لاعتبارات أخرى ، كان سببا رئيسيا في ولادة أو وجود طفل معوق في الأسرة كما يعتقدون .

٥- الاعتقاد الخاطئ – وفقا لمنطق العقل البشري القاصر – بأن الحظ السيئ الذي يلازم الأسرة منذ بداية تكوينها ، والذي تمثل في تأخير سن الزواج للعروسين إلى هذا السن الكبير نسبيا (٣٥سنة فما فوق) وبالتالي عدم التكافؤ بين الزوجين في السن ، يمثل السبب الرئيسي في ولادة أو وجود طفل معوق كما يعتقدون .

٦- الاعتقاد الخاطئ – وفقا لمنطق العقل البشري القاصر – أن حدوث الحمل المبكر رغما عن إرادة الأم أو الأب أو هما معا ، وعدم ترحيب أحدهما أو كلاهما بالإنجاب السريع وما أعقب ذلك من (مناوشات) أسرية بين الزوجين طوال فترة الحمل ، كان سببا رئيسيا في ولادة أو وجود طفل معوق في الأسرة

منطلقات البحث

ينطلق البحث من عدة قناعات فكرية يسلم بها الباحث في تناوله لقضية الإعاقة كابتلاء ، ومنها :

١- أن الإعاقة ابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين في الحياة الدنيا يتطلب الصبر الجميل على تبعاتها الحياتية المتوالية من ناحية ، والسعي الحثيث نحو دفع البلاء قدر المستطاع ، وعلاج هذه الإعاقة بالاكتشاف والتدخل المبكر والحد من تأثيراتها ما أمكن ذلك من ناحية أخرى ، كما يتطلب الأمر النجاح في هذا الابتلاء أو الاختبار لبني الإنسان للفوز بنعيم الجنة في الحياة الآخرة من ناحية ثالثة .

٢- أن الإعاقة تمثل ابتلاء بالمضار للاختبار والتمحيص وليست من المصائب التي يصاب بها الإنسان بما قدمت يداه وتؤول بصاحبها إلى عذاب النار ، لأن الإعاقة تحدث للإنسان دون قصد أو إرادة منه ، فالإنسان في حالة ابتلاء الإعاقة يكون مسيراً بما جرت به المقادير وفق حكمة المشيئة الإلهية ، فلا يختار الإنسان إعاقته ولا يختار له الآخرون نوعية هذه الإعاقة ، ولو عرضت الإعاقة على كل البشر لرفضها معظم البشر إلا المؤمنين الصابرين المتوكلين على الله .

٣- أن الإعاقة لدى الأطفال المعوقين لا تمثل عقابا أو إيذاء أو جزاءً سلبيا لأسر الأطفال المعوقين أو انتقاما منهم على شر فعلوه أو إثم اقترفوه في الحياة الدنيا كما قد يعتقد البعض ، ولكنها تمثل حكمة إلهية باطنها فيه فتنة وظاهرها فيه ابتلاء لكشف معادن بني الإنسان وبيان جودة النفوس أو رداءتها وسلامة القلوب أو أمراضها تمهيدا للجزاء الأوفى في الحياة الآخرة .

٤- أن الإيمان الحقيقي بالقضاء والقدر خيره وشره ، يسهم في تقليل آثار الضغوط النفسية التي يمكن أن تقع على أسر الأطفال المعوقين ، فما قد يحسبه الناس

شرا أو مضرا قد يكون فيه نفع وخير كثير ، وما يحسبه الإنسان خيرا قد يكون فيه شر كبير ، والله يعلم من خلق ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلله في خلقه شئون .

٥- أن الاعتقادات الخاطئة حول عوامل وأسباب الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين مع المطابقة والمضاهاة والمقارنة بين الأطفال المعوقين والأطفال العاديين ، (والتندر) على ما أصاب الأطفال المعوقين دون (التدبر) في حكمة الابتلاء ، تضاعف من حجم الضغوط والإحباطات النفسية الواقعة على هذه الأسر من ناحية ، وعلى طريقة تعاملها السلبي وغيرها من أشكال الإساءة الوجدانية تجاه هؤلاء الأطفال المعوقين من ناحية أخرى

٦- يجب ألا يعاقب المجتمع – وخاصة الآباء والأمهات – الأطفال المعوقين على إعاقتهم النوعية التي أصيبوا بها دون إرادة منهم ، فقد حملوا الإعاقة دون رغبة أو إرادة لحكمة إلهية دون ذنب جنوه أو إثم اقترفوه ، فهم ليسوا طرفا فيما هم فيه من إعاقات لم يختاروها ولكنهم حملوها وهم لها كارهون ، ومن ثم فإن الضرورة تقتضي التعامل الحضاري مع هؤلاء الأطفال المعوقين بما يشعرهم بأنهم أفراد إنسانيين لهم حق الحياة الطبيعية مثل عموم البشر أجمعين

٧- أن الكشف عن عوامل وأسباب سيادة بعض الاتجاهات النفسية السلبية والمعتقدات الشعبية الخاطئة عن الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين ، يمثل بداية الطريق نحو (تخلية) و(تنحية) هذه الخطايا الإنسانية والمعتقدات الخاطئة ذات التأثيرات النفسية السلبية من ناحية ، ومن ثم (تحلية) وبناء توجهات إيجابية ومعتقدات صحيحة داعمة للأطفال المعوقين في الأسرة والروضة والمدرسة والمجتمع من ناحية أخرى .

٨- نحن في حاجة ماسة إلى بناء ثقافة حضارية من نوع جديد حول الإعاقة والأطفال المعوقين وفقا لمبادئ قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، ثقافة

تقوم على منطق الإيمان الصحيح بحكمة الله تعالى في ابتلاء بعض الناس بالسراء من أجل الشكر الجزيل ، وابتلاء البعض الآخر بالضراء من أجل الصبر الجميل ، تمحيصا للنفوس وتطهيرا للقلوب وأملا في جنة المأوى في الحياة الآخرة .

دراسات سابقة :

تعرض الدراسة الحالية لبعض الدراسات العربية السابقة ذات العلاقة بموضوع الإعاقة ومنها :

١- دراسة أشرف صبري علي (١٩٩١م)

وقد هدفت تلك الدراسة على التعرف على العلاقة بين السلوك التكيفي للمتخلفين عقليا واتجاهات آبائهم نحو التخلف العقلي .

وأوضحت الدراسة وجود علاقة دالة بين أبناء ذوي الاتجاهات العالية وأبناء ذوي الاتجاهات المنخفضة في بعض أبعاد مقياس السلوك التكيفي لصالح المرتفعين وبعضها لصالح المنخفضين ، وكذا وجود فروق دالة بين أبناء ذوي المستوى الاقتصادي - الاجتماعي المرتفع وأبناء الآباء ذوي المستوى الاجتماعى- الاقتصادي المنخفض لصالح ذوي المستوى المرتفع .

٢- دراسة زيدان أحمد السرطاوي (١٩٩١م)

وقد هدفت تلك الدراسة إلى توضيح أثر الإعاقة السمعية للطفل على الوالدين وعلاقة ذلك ببعض المتغيرات .

وأوضحت الدراسة أن نوع الطفل (ذكر / أنثى) ليس له أثر ملموس على مستوى الضغوط النفسية التي يتعرض لها الوالدان ، بينما كان لعمر الطفل أثر واضح وذو دلالة إحصائية على استجابة الآباء والأمهات ، ولذلك فإن مستوى

الضغوط النفسية التي يتعرض لها والدا الطفل المعوق الأصغر عمرا كانت أعلى من مستوى الضغوط النفسية التي يتعرض لها والدا الطفل المعوق الأكبر عمرا .

٣- دراسة حمدي محمد شحاته (١٩٩٣م)

وقد هدفت تلك الدراسة إلى التعرف على طبيعة الاتجاهات الوالدية نحو الأطفال الصم وعلاقة هذه الاتجاهات بمفهوم الذات لدى هؤلاء الأطفال ، وكذا التعرف إلى اختلاف هذه الاتجاهات باختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي .

وأوضحت الدراسة وجود علاقة دالة بين السواء الوالدي واتجاهات الوالدين نحو أطفالهم الصم وبين مفهوم الذات لدى هؤلاء الأطفال ، كما أن آباء الأطفال الصم يفرقون بين أطفالهم العاديين وبين أطفالهم الصم في ثلاثة اتجاهات هي : الحماية الزائدة ، والقسوة ، والتذبذب .

٤- دراسة السيد سعيد الخميس (١٩٩٧م)

وقد هدفت تلك الدراسة إلى التعرف على التأثير المتبادل بين الطفل المتخلف عقليا وبين والديه من حيث تأثير اتجاهات الوالدين نحو طفلهم المتخلف ، وتأثير هذه الاتجاهات على البناء النفسي للوالدين من حيث الاكتئاب وبعض أبعاد التوافق النفسي .

وأوضحت الدراسة أن والدي الطفل المتخلف عقليا (عينة الدراسة) كانت أكثر اكتئابا وأقل توافقا من الناحية المنزلية والانفعالية ، وأنهم يعتنقون اتجاهات الرفض والقسوة والإهمال نحو أطفالهم المتخلفين عقليا وذلك عند مقارنتهم بوالدي الأطفال العاديين ، كما أوضحت الدراسة أنه كلما زاد اتجاه التقبل لدى الوالدين زاد توافقهم المنزلي والاجتماعي ، وكلما كانوا أكثر حماية زائدة لأطفالهم المتخلفين كانوا أكثر اكتئابا .

٥- دراسة إيمان فؤاد كاشف (٢٠٠٠م)

وقد هدفت تلك الدراسة إلى توضيح أبعاد العلاقة بين أنواع الضغوط النفسية لدى أمهات الأطفال المعوقين وبين الاحتياجات الأسرية والمساندة المجتمعية . وأوضحت الدراسة وجود ترتيب للضغوط النفسية الواقعة على هؤلاء الأمهات ، وأهمها ضغوط رعاية الطفل ، ضغط التوقعات المستقبلية للطفل ، الضغوط المادية والاقتصادية ، ضغوط ردود أفعال الآخرين ، ثم ضغوط سمات الأطفال الأبناء العاديين ، حيث جاءت الضغوط الاجتماعية في المرتبة الأخيرة ، كما أوضحت الدراسة وجود فروق دالة إحصائيا على أبعاد مقياس الضغوط الأسرية فيما يتعلق بالتوقعات المستقبلية للطفل المعوق (الإناث) لدى أمهاتهم .

٦- دراسة شاكر عطية قنديل (٢٠٠٠م)

وقد هدفت تلك الدراسة إلى إعادة توجيه التفكير والرؤية الاجتماعية نحو المعوقين وتوجيه الاهتمام نحو جوانب القوة في شخصية المعوق ، والتأكيد على أن الاعتراف بوجود عجز في جانب واحد من شخصية المعوق لا ينبغي تعميمه على كامل شخصيته .

وأوضحت الدراسة أن الأسباب الاجتماعية ما زالت تلعب الدور المؤثر في تعقيد ظاهرة الإعاقة ، الأمر الذي يتطلب إعادة توجيه الرؤية الاجتماعية تجاه المعوقين ، وأن الاتجاه إلى معالجة الإعاقة من منظور اجتماعي يعتبر توجها متفائلا لأن هذا التوجه يضع مركز مشكلة الإعاقة خارج الفرد المعوق .

٧- دراسة آمال عبد السميع باظه(٢٠٠٤م)

وقد هدفت الورقة البحثية إلى توضيح أهم الاتجاهات السلبية نحو الإعاقة وخاصة فيما يتعلق بالتوقعات المستقبلية .

وأوضحت الورقة البحثية أن هناك اتجاها سلبيا نحو الإعاقة والنظرة المستقبلية للطفل لدى أسر الأطفال المعوقين ، يتمثل في التعامل مع موضوع الإعاقة بعدم الرضا والحزن الدائم ، واليأس من التحسن ، وكأن مصيبة قد حلت بالأسرة ، ويتمثل ذلك في بعض الحالات : باستبعاد الطفل تماما من الدائرة الاجتماعية التي تعيش فيها الأسرة ، وفي غالبيتهم لا يلتحق الطفل بمدارس التربية الخاصة خاصة مع انخفاض المستوى الاقتصادي والاجتماعي لأسرة الطفل ، أو يلتحق ولكن النظرة الحزينة وعدم التوقع لتحسن حالة الطفل يسود مشاعر الأسرة .

٨- دراسة إيمان فؤاد كاشف (٢٠٠٤م)

وقد هدفت الورقة البحثية إلى توضيح معطيات وآليات تطبيق مدخل إرشادي للأسرة فيما يتعلق بالتدخل المبكر لرعاية الطفل المعوق .

وأوضحت الورقة البحثية أن العلاقات الأسرية داخل أسر الأطفال المعوقين تتأثر بوجود الطفل المعوق ، وتكون في معظمها علاقات سلبية ، مما يؤدي إلى صعوبة توافق أفراد الأسرة ككل ، وينعكس ذلك بالطبع على توافق الطفل المعوق سواء مع إعاقته أو في علاقته بوالديه وأخوته ، كما أن غالبية الأسر التي لديها طفل معوق تصاب بالإحباط واليأس وفقدان الأمل في إصلاح الطفل .

تعليق على الدراسات السابقة

يتضح من عرض الدراسات السابقة التي وردت في الدراسة الحالية ما يلي :

١- أن اتجاهات الآباء والأمهات نحو الإعاقة والأطفال المعوقين يؤثر تأثيرا كبيرا في طريقة تعاملهم مع هؤلاء الأطفال ، كما أن هذه الاتجاهات – خاصة السلبية منها – لها تأثير بالغ على مفهوم الذات وتوافق الطفل مع إعاقته والمحيطين به

٢- أن معظم أسر الأطفال المعوقين يصابون بالصدمة وخيبة الأمل والحزن لاكتشاف أو وجود طفل معوق ، وأن وجود الإعاقة تسبب للوالدين ضغوطا نفسية متواصلة يرافقها مستويات مرتفعة من التشاؤم والاكتئاب والاعتقادات الشعبية الخاطئة بالإعاقة والمعوقين .

٣- لم تتعرض الدراسات السابقة لقضية الإعاقة باعتبارها نوعا من أنواع الابتلاء بالمضار الذي يستوجب الصبر الجميل مع دفع البلاء قدر المستطاع ، والتوكل على الله سبحانه وتعالى أولا وأخيرا ، وأن هذا الابتلاء اختبار للقلوب وتمحيص للصدور لكشف معادن النفوس الإنسانية من حيث الجودة أو الرداءة وهو ما ستقوم به الدراسة الحالية .

٤- أن معظم الدراسات السابقة التي وردت في هذه الدراسة الحالية ، قد أغفلت الجانب القيمي في حياة أسر الأطفال المعوقين ، ومن هنا كانت الدراسة الحالية لدعم الجانب الروحي والأخلاقي ذي المرجعية الدينية لهذه الأسر المبتلاة ، لما لهذا الجانب من أثر فعال على مواجهة تأثيرات محنة الإعاقة وتجاوز ظروف ضغوطها النفسية ، والرضا والقبول بما قسمه الله مع دفع البلاء قدر المستطاع دون إهمال أو كسل أو تواكل .

وبناء على ما سبق ، يمكن القول أنه :

إذا كانت الإعاقة – كأقدار إلهية سبق تقريرها – قد حدثت بالفعل لدى الأطفال المعوقين لحكمة إلهية يعلمها الله سبحانه وتعالى بما جرت به المقادير.

وإذا كانت بعض أسر الأطفال المعوقين – بمنطق العقل البشري القاصر – تعتقد اعتقادات خاطئة ومنها أن الإعاقة تمثل مصيبة أو عقوبة أو عذابا لها في الحياة الدنيا لعوامل وأسباب شتى .

فلماذا تكونت هذه الاعتقادات الخاطئة لدى معظم هذه الأسر التي تجهل أن الإعاقة ابتلاء إلهي يتطلب الصبر الجميل على المحن والضراء ودفع البلاء قدر المستطاع ؟

وما العوامل والأسباب التي تفسر استمرار وجود هذه الاعتقادات الخاطئة حول الإعاقة التي تتنافى مع حكمة الابتلاء وخصائصه في ضوء القرآن الكريم ؟

وما الآثار السلبية المترتبة على سيادة هذه الاعتقادات الخاطئة حول قضايا الإعاقة عند أفراد المجتمع وخاصة لدى أسر الأطفال المعوقين ؟

وكيف يمكن تصحيح هذه الاعتقادات الخاطئة التي تساوي بين الابتلاء بالإعاقة وآثارها الإيجابية ، والجزاء بالعقوبة وآثارها السلبية ؟

وما النتائج المتوقعة من تصحيح الاعتقادات الخاطئة حول قضايا الإعاقة وتكوين معتقدات دينية صحيحة لدى أسر الأطفال المعوقين حول مفهوم الإعاقة كابتلاء في ضوء القران الكريم ؟

قضية البحث :

تتمثل القضية التي يطرحها البحث الحالي في مضمون ومعاني العبارة التالية :

(على الرغم من أن بعض أسر الأطفال المعوقين – التي ينقصها الوعي الديني ومنطق الإيمان الصحيح – في ثقافة المجتمع العربي ، قد تعتقد خطأ أن الإعاقة مصيبة قد أصابتها في بعض أطفالها دون غيرها من الأسر من ناحية ، وأن الإعاقة تمثل عقابا لها على آثام فعلتها وتكفيرا لها عن ذنوب ارتكبتها من ناحية أخرى ، إلا أن الإعاقة في إطار المنطق الديني والإيماني الصحيح تمثل ابتلاء إلهيا لأسر الأطفال المعوقين ، يتطلب الصبر الجميل على هذا الابتلاء مع دفع البلاء قدر المستطاع والتعامل الواعي مع هذه المحنة التي تعد اختبارا وتمحيصا للإنسان للنجاح فيه استجابة لحكمة المشيئة الإلهية في الابتلاء بالمضار في ضوء القرآن الكريم) .

وعلى هذا ، فإن هذه الإشكالية البحثية السابقة (الإعاقة كابتلاء إلهي لدى أسر الأطفال المعوقين يحسبها البعض مصيبة وعقوبة وعذابا دون الأخذ في الاعتبار حكمة قانون الابتلاء الإلهي) تتطلب البحث والدراسة العلمية المتعمقة ، لتوضيح مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان واختلافها عن الإعاقة التقليدية ، وكذا توضيح مفهوم وحكمة قانون الابتلاء وأهم خصائصه وأنواعه ، وموقع الإعاقة من قانون الابتلاء في ضوء آيات القرآن الكريم ، إضافة إلى توضيح بعض المفاهيم المغلوطة والاعتقادات غير الدينية التي تحيطها الخرافات الشعبية التي تساوي بين الابتلاء بالإعاقة كحكمة إلهية وبين الجزاء بالعقوبة في الحياة الدنيا أو المصيبة (كالكفر والشرك) التي تقدمها يد الإنسان وعقابها في الحياة الآخرة ، وصولا إلى تحديد متطلبات التعامل التربوي الصحيح مع ابتلاء الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين) .

التساؤلات البحثية

تطرح قضية البحث السؤال الرئيسي التالي:

ما المتطلبات التربوية لمواجهة ابتلاء الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين في ضوء القرآن الكريم ؟

ويتفرع من هذا السؤال مجموعة التساؤلات الفرعية التي تتطلب الإجابة عنها وهي :

١- ما مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم ؟

٢- ما مفهوم الابتلاء وما أهم خصائصه وأنواعه في ضوء القرآن الكريم ؟

٣- ما الحكمة الكامنة وراء الابتلاء بالسراء والضراء في ضوء القرآن الكريم ؟

٤- ما موقع الإعاقة من مبادئ قانون الابتلاء الإلهي في ضوء القرآن الكريم ؟

٥- ما متطلبات التعامل التربوي مع ابتلاء الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين ؟

مصطلحات البحث

سوف يقتصر البحث الحالي على توضيح عدد من المصطلحات البحثية التي تخدم قضية الدراسة على النحو التالي :

الإعاقة Handicapping

حالة جسمية (فسيولوجية) أو عقلية أو اجتماعية أو وجدانية ، مؤقتة أو دائمة ، يصاب بها الطفل / الفرد الإنساني قبل أو أثناء أو بعد الولادة ، لحكمة إلهية ولعوامل وأسباب معلومة أو مجهولة إلى حين ، وتحد – هذه الحالة الإعاقية – من

قدرة الطفل المعوق على النمو والتعلم واكتساب المعرفة الفكرية أو المهنية ، أو ممارسة المهام الحياتية بشكل طبيعي مقارنة بأقرانه من الأطفال العاديين ، حيث تحول هذه الحالة الإعاقية دون تمكن صاحبها الطفل المبتلى من ممارسة أنشطة وأدوار الحياة الاجتماعية المتوقعة على النحو الأمثل وفق المعايير الاجتماعية التي تحددها ثقافة المجتمع .

وسوف يتضح أكثر معنى الإعاقة التقليدية والإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في المحاور التالية من الدراسة الحالية .

الابتلاء Test (Affliction)

أقدار إلهية كتبت على بني الإنسان في الملأ الأعلى لحكمة يعلمها الله وتجهلها الإرادة الإنسانية ، لاختبار ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب وفرز معادن النفوس الإنسانية والوقوف على جودتها أو رداءتها في الحياة الدنيا ، كما أن هذا الابتلاء يكون بالشر والعسر والسيئات والضراء الذي يستوجب الصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع ، أو يكون بالخير واليسر والحسنات والسراء الذي يستوجب الشكر الجميل والحفاظ على النعم التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان ، ليجزى الكافر الناكر على سخطه مما جرت به المقادير بعذاب النار ، ويجزى المؤمن الشاكر على رضاه بالأقدار بجنة النعيم في الحياة الآخرة .

وسوف يتضح أكثر مفهوم الابتلاء وخصائصه وأنواعه والحكمة الكامنة وراءه في المحاور التالية من الدراسة الحالية .

الأطفال المعوقون Handicapped Children

هم فئة من الأطفال الذين تحول ظروفهم الإعاقية (عجز في الجسم أو خلل في الحواس أو قصور في العقل أو غيرها من إصابات جسدية واضطرابات وجدانية) ، دون استمرار نموهم النفسي ، أو ممارسة الأدوار أو أداء المهام أو ظهور السلوك

بشكل طبيعي في مواقف الحياة الاجتماعية العادية ، تلك الظروف الإعاقية – التي ولدوا بها أو ألحقت بهم بعد ولادتهم – يمكن أن تؤثر سلبيا على اكتسابهم المعلومات والمهارات والسمات الجسمية والعقلية والاجتماعية والوجدانية مقارنة بأقرانهم من الأطفال العاديين ، ومن ثم يحتاجون إلى زيادة المساعدة الإنسانية التكاملية المتخصصة والدعم الأسرى والمجتمعي المتواصل من خلال تعظيم ما تبقى لديهم من إمكانات قابلة للتعليم والتدريب ، وصولا إلى تحقيق أقصى طاقة ممكنة يملكونها في الحاضر والمستقبل في إطار معايير ثقافة المجتمع .

أهمية البحث

تأتي أهمية الدراسة الحالية من خلال توضيح النقاط التالية :

١- أن توضيح مفهوم الابتلاء وخصائصه على درجة كبيرة من الأهمية ، حيث يخلط اكثيرون بين مفهوم الإعاقة ومفهوم المصيبة ، ويعتبرون أن الإعاقة مصيبة قد حلت بالطفل وكأنها عقاب للأسرة في الحياة الدنيا ، ولذلك فإن توضيح الأطر المفاهيمية لكل من الابتلاء والإعاقة يزيل كثيرا من الشك والغموض حول هذين المفهومين المتداخلين ، وما لهذا التوضيح من تأثيرات على اتجاهات الآباء والأمهات نحو أطفالهم المعوقين .

٢- ان استجلاء حكمة المشيئة الإلهية في الابتلاء بالإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين ذو أهمية خاصة ، ذلك أن لله سبحانه وتعالى في خلقة شئوناً قد لا يدركها إلا العالمون ، خاصة وأن ابتلاء الإنسان المؤمن كله خير ، فإذا تم ابتلاؤه بالسراء فشكر كان خيرا له ، وإذا تم ابتلاؤه بالضراء فصبر فكان خيرا له ، وعسى أن يكره الإنسان شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

٣- أن الوقوف على مبادئ قانون الابتلاء وتحديد موقع الإعاقة منه على درجة كبيرة من الأهمية ، ذلك أن الالتزام بمبادئ قانون الابتلاء يجعل حياة أسر الأطفال المعوقين أكثر هدوءا وأقل ضغوطا وأكثر إيجابية في التعامل مع هؤلاء

الأطفال ، فبالقوانين الإلهية في الابتلاء يمكن أن تسير الأمور في نصابها الصحيح ، وتستقيم حياة الأطفال المعوقين مع الأسرة. والروضة والمدرسة والمجتمع .

٤- ندرة تناول الدراسات (العربية) لقضية الإعاقة كابتلاء إلهي في ضوء القرآن الكريم ، فقلما تناولت هذه الدراسات قضية الإعاقة كابتلاء إلهي وفق الرؤية الاثنوجرافية فيما وراء الألفاظ والمعاني والأحداث المتعلقة بالإعاقة ، في إطار الصيغة التأويلية التفسيرية للبحث التربوي في مجال تربية الأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاة .

٥- انعدام تناول الدراسات (الأجنبية) في مجال الإعاقة والطفل لقضية الإعاقة كابتلاء إلهي في ضوء القرآن الكريم ، ربما لانعدام الخلفية الدينية المرجعية ذات الإطار الديني في معظم الثقافات الأجنبية ، ومن ثم فإن دراسة هذه القضية في إطار آيات القرآن الكريم من جانب وفي إطار معطيات الثقافة العربية من جانب آخر ، يعطي لها قيمة دينية وعلمية في آن واحد .

٦- أن الدراسة الحالية تكاد تكون من الدراسات النادرة التي تناولت قضية الإعاقة كابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين ، ذلك أن تغيير الاتجاهات السلبية وتقليل الضغوط النفسية لدى أسر الأطفال المعوقين ، يحتاج إلى سند شرعي من الدين الحنيف لتدعيم هذا التغيير المطلوب ، وما الدراسة الحالية إلا خطوة على طريق توثيق الإعاقة كابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، وهو ما قد يكون سقط سهوا أو تم إغفاله من قبل الدراسات السابقة .

٧- تعدد المستفيدين من نتائج هذه الدراسة التحليلية لقضية الإعاقة كابتلاء وهم :

ا-<u>الأطفال المعوقون</u> : حيث يمكن أن يتاح لهم مناخ أسري يقوم على الإيمان العميق بالقضاء والقدر ، وتأثيراته الإيمانية على كيفية التعامل معهم كأفراد إنسانيين يجب أن يحظوا بالكرامة الإنسانية في إطار حياة طبيعية .

ب-أسر الأطفال المعوقين : حيث يمكن أن يتاح لهم فرص مناسبة للتغيير الإيجابي والتجديد النفسي تجاه قضية الإعاقة والأطفال المعوقين ، فمن خلال تحليل مفهوم الابتلاء والمبادئ التي يقوم عليها والحكمة التي تكمن وراءه ، وموقع الإعاقة من قانون الابتلاء بالسراء والضراء ، فإن تغيير أساليب التعامل مع الأطفال المعوقين يمكن أن يكون ممكنا وأكثر قيمة وجدوى .

ج-المجتمع : حيث يمكن أن تساعد نتائج الدراسة الحالية في تغيير النظرة المجتمعية تجاه الإعاقة والأطفال المعوقين ، خاصة وأن الإعاقة التى يبتلى بها بعض الأطفال وأسرهم ، تحدث وفقا لمشيئة إلهية ودون إرادة إنسانية لاختبار القلوب وتمحيص الصدور وكشف معادن النفوس الإنسانية .

منهج البحث

اعتمد البحث الحالي على منهج البحث الوصفي التحليلي ، وكذلك منهج البحث الإثنوجرافي ضمن إطار الصيغة التأويلية التفسيرية للألفاظ والمعاني المتعلقة بالابتلاء والفتنة ومشتقاتهما كما وردت في ضوء القرآن الكريم ، ومحاولة قراءة ظاهر النص القرآني قراءة قلبية استنباطا لما فيه من حكمة المشيئة الإلهية التي لا تدركها الإرادة الإنسانية خاصة لدى أسر الأطفال المعوقين .

أهداف البحث :

تتعدد الأهداف التي يسعى البحث لتحقيقها لتشمل :

١- توضيح مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم .

٢- تحديد مفهوم الابتلاء وأهم خصائصه وأنواعه في ضوء القرآن الكريم .

٣- تحليل مضامين الحكمة الكامنة من وراء الابتلاء في ضوء القرآن الكريم .

٤- استجلاء موقع الإعاقة من قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم .

٥- تحديد متطلبات التعامل التربوي مع ابتلاء الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين .

محاور الدراسة :

تشمل محاور الدراسة الحالية – علاوة على الإطار العام للقضية البحثية – على أربعة محاور أساسية هي :

المحور الأول : مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم .

المحور الثاني : مفهوم الابتلاء وأهم خصائصه وأنواعه في ضوء القرآن الكريم .

المحور الثالث : حكمة الابتلاء بالسراء والضراء في ضوء القرآن الكريم .

المحور الرابع : موقع الإعاقة من قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم .

المحور الخامس : متطلبات التعامل التربوي مع ابتلاء الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين

المحور الأول
مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم

يتناول هذا المحور محاولة الإجابة عن التساؤل الفرعي (الأول) الذي طرحته قضية الدراسة الحالية ، ويدور حول توضيح مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم ، وهل الإعاقة هي إعاقة الحواس والأعضاء الظاهرية أم أن الإعاقة تشمل مواطن داخلية في الطبيعة الإنسانية ، الأمر الذي يمكن تناوله على النحو التالي :

أولا : الإعاقة في إطار المفاهيم التقليدية :

يشير مفهوم الإعاقة التقليدية إلى اعتبارها :

١- (تأثيرا انعكاسيا نفسيا أو انفعاليا أو اجتماعيا مركبا ، يحدث للفرد نتيجة لإصابته بخلل أو عجز يحول دون أدائه للدور الطبيعي أو الأداء المتوقع منه في ثقافة المجتمع ، ويظهر ذلك بصورة واضحة في الفروق الكبيرة في الأداء لهذا الفرد جسميا وعقليا واجتماعيا ووجدانيا ، عند مقارنته بالأداء المتوقع منه أو بأداء مجموعة من أقرانه العاديين في نفس العمر والنوع (Gender) في البيئة الاجتماعية لثقافة المجتمع .

٢- (حالة من عدم القدرة على تلبية الطفل لمتطلبات أداء أدواره الطبيعية في الحياة الاجتماعية مقارنة بالأطفال العاديين ، حيث ترتبط هذه الحالة بعمر الطفل ونوعه (ذكر / أنثى) وخصائص نموه الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية ، كما ترتبط هذه الحالة ببيئة الطفل ومعاييرها الاجتماعية والثقافية ، وذلك نتيجة الإصابة أو العجز أو القصور في أداء الوظائف الفسيولوجية أو السيكولوجية ، مما يتطلب تقديم خدمات تربوية تصل بالطفل المعوق إلى أقصى درجة يمكن أن تصل إليها قدراته) .

٣- (حالة جسمية(فسيولوجية) أو عقلية أو اجتماعية أو وجدانية ، مؤقتة أو دائمة ، يصاب بها الطفل / الفرد الإنساني – قبل أو أثناء أو بعد الولادة – لعوامل وأسباب معلومة أو مجهولة إلى حين ، وتحد من قدرته على النمو والتعلم واكتساب المعرفة الفكرية أو المهنية أو ممارسة المهام والأدوار الحياتية بشكل طبيعي مقارنة بأقرانه العاديين ، حيث تحول هذه الحالة الإعاقية دون تمكن صاحبها المبتلي من ممارسة أنشطة الحياة الاجتماعية على النحو الأمثل من الأداء المتوقع وفق المعايير الاجتماعية التي تحددها ثقافة المجتمع) .

وبناء على هذا التوصيف السابق لمعنى الإعاقة وفق الرؤية التقليدية ، فإنه يمكن توضيح الأبعاد التالية :

١ــــالإعاقة ابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين

إن الإعاقة– في البداية والنهاية – تمثل ابتلاء إلهيا لأصحابها من الأطفال المعوقين ولأسرهم المبتلاة ، يستلزم الصبر الجميل على هذا الابتلاء ودفع البلاء قدر المستطاع من أجل النجاح فيه ، فالإعاقة بدون صبر على تبعاتها أو إنكارها وعدم تقبل وجودها تمثل جحيما لا يطاق لأسر الأطفال المعوقين ، بينما الصبر الجميل على الإعاقة والرضا بالقضاء والقدر ومحاولة تلمس علاجها والتخفيف من آثارها ، يمثل بلسما شافيا لابتلاء الإعاقة ومن ثم التكيف الإيجابي معها في الحياة الدنيا والفوز بنعيم الجنة في الحياة الآخرة .

٢- الإعاقة إصابة للطفل تسييرا لا تخييرا

إن الإعاقة التي تصيب بعض الاطفال كابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين ، قد كتبت عليهم – كأقدار إلهية – في الملأ الأعلى لحكمة إلهية لا تدركها الإرادة الإنسانية ، فإعاقة الطفل تقع في إطار التسيير الإلهي دائم الخير لبني الإنسان بعيدا عن التخيير الإنساني الذي قد يكون شرا ، فالإنسان في حياة الإعاقة يكون مسيرا فيما جرت به المقادير الإلهية التي كتبت سلفا ، حيث تحدث الإعاقة للطفل دون إرادة

منه أو تفضيل أسري لبعضها ، فالإعاقة إصابة تحدث (في) الطفل وهو فيها مسير لا إرادة له فيها ولا تحدث (من) الطفل حتى لو خير فيها ، فلا يختار أحد إعاقته ولا يخطر بقلب الأسرة أن يكون طفلها معوقا ، ولكنها حكمة المشيئة الإلهية في الأمر الإلهي للفعل كن فيكون ، قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (يس / ٨٢) .

٣- الإعاقة قدرية وليست انتقائية لأصحابها الأطفال

أن الإعاقة التي تحل بالطفل ليست انتقائية أو اختيارية لبعض الأطفال دون البعض الآخر ، فالإعاقة لا تصيب أطفالا بعينهم وتترك أطفالا آخرين لعوامل اقتصادية أو اجتماعية أو عرقية أو جنسية أو دينية أو غيرها ، فالإنسان ليس معصوما من قدر الإعاقة إلا بما شاءت به الأقدار الإلهية ، ولكن قدر الإعاقة يمكن أن يصيب أي طفل قد كتبت له أو عليه مهما كان وفي أي مكان وزمان ، فالإعاقة أقدار وابتلاءات إلهية قد كتبت في الملأ الأعلى تصيب وتحل بالأطفال المعوقين لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ولا تدركها الإرادة الإنسانية التي لا تعلم من أمرها شرا كان أم خيرا .

٤- الإعاقة ظاهرة لها عوامل وأسباب مختلفة

إن الإعاقة قد تصيب الطفل – لحكمة إلهية – أثناء الحمل لعوامل وراثية أو لأسباب بيئية ، أو قد تحدث أثناء الولادة لأخطاء إنسانية أو طبية مهنية ، أو قد تحدث بعد ميلاد الطفل لسبب أو لآخر معلوم أو غير معلوم إلى حين ، فالوقاية من أسباب الإعاقة خير من علاج تأثيراتها السلبية ، وعلى هذا يمكن القول : تعددت العوامل والأسباب والإعاقة هي الإعاقة بمفهومها التقليدي سواء أدركنا أسبابها البيئية أو لم ندرك عواملها الوراثية بعد ، ولكن الإعاقة الحقيقية بمفهومها الإيماني شيء آخر كما سيتضح لاحقا .

٥- الإعاقة ظاهرة متعددة الأوجه وليست نوعا واحدا

أن الإعاقة تمثل حالة من الضعف أو القصور أو العطب الذي يصيب بعض أجزاء الجسم أو الحواس (العمى ، الصمم ، البكم) أو تلك التي تصيب بعض الوظائف العقلية (الذهانية) أو النفسية (العصابية) ، أو تلك التي تعبر عن بعض أنواع الخلل والاضطرابات السلوكية والوجدانية التي يعانيها الفرد الإنساني ، بما يؤثر سلبيا على أداء الفرد في مسيرة وسيرة وصيرورة حياته في الحاضر والمستقبل ، وتجعله في حاجة إلى دعم ومساندة تربوية واجتماعية ونفسية متواصلة من قبل الأسرة والمدرسة والمجتمع .

٦- الإعاقة ذات انحراف نسبي للأداء عن السلوك الطبيعي للإنسان

إن الإعاقة التى تصيب بعض الأطفال لحكمة إلهية لا تدركها الإرادة الإنسانية ، قد تحد من قدرة أصحابها المبتلين على النمو الجسمي أو العقلي أو الاجتماعي أو الوجداني السوي طبقا لمعايير ثقافة المجتمع ، وما يرتبط بهذا من ضعف اكتساب بعض المهارات الأدائية أو التواصلية أو ممارسة أنشطة السلوك الطبيعي في الحياة الاجتماعية مقارنة بالأفراد العاديين ، ولهذا ينبغي ألا نقارن الأطفال المعوقين بأقرانهم العاديين أو حتى بأقرانهم من المعوقين في مواقف التفاعل الاجتماعى ، فكل طفل معوق فريد في ذاته وفي نوعية إعاقته التي يحملها ، ولهذا يجب أن يقيم هذا الطفل المعوق في ضوء مدى تقدمه وإنجازاته هو وليس في ضوء إنجازات الآخرين معوقين كانوا أم عاديين .

٧- الإعاقة ظاهرة مجتمعية أكثر منها عوامل فسيولوجية

تعد الإعاقة – في أحد تفسيراتها – ظاهرة مجتمعية بالدرجة الأولى أكثر منها ظاهرة فسيولوجية تقع داخل هذا الطفل ، فالمجتمع هو الذي يضع مسميات الإعاقة ويحدد ردود الأفعال تجاه الاطفال المعوقين ، ويضع معايير الحكم على السلوك

السوي وغير السوي الذي يختلف من ثقافة مجتمع معين إلى ثقافة مجتمع آخر ، ولهذا فإن المجتمع المعوق – بما يحمله من ثقافة معوقة – يعوق أبناؤه حتى الأصحاء منهم ، بجانب أبنائه من المعوقين أهل الابتلاء الذين يحملون الإعاقة دون ذنب جنوه أو إثم اقترفوه ، ولذلك فالطفل المعوق في مجتمع معين قد لا يكون معوقا في مجتمع آخر طبقا لرقي ثقافة المجتمع ودرجة تقدمه الحضاري .

ثانيا : الإعاقة بين صدمة الاكتشاف وحقيقة الاعتراف لدى الإنسان :

يبدأ الزواج الطبيعي من أجل تكوين أسرة جديدة بالاختيار المتبادل بين الزوجين وفقا لاعتبارات متعددة ماليا ، حسبيا ، جماليا ، دينيا ، وأفضلها ما ارتبط بالدين ، وما يتلو ذلك من إجراءات لإشهار عقود القران وإقامة الأفراح والليالي الملاح ، في إطار من البهجة والسعادة والسرور وسط غبطة الأهل والأصدقاء والأحباب لكلا العروسين ، اللذين قد لا يكون في حسابهما شيء – في الفترة الأولى – سوى أن يكونا زوجين سعيدين وفق فلسفتهما ووجهة نظرهما في الحياة الاجتماعية المشتركة .

وعادة ما يتوقع الزوجان – بعد فترة زواج ما – أن يعيشا عيشة هنية في تبات ونبات وأن يرزقهما الله من الأطفال البنين والبنات ، لتكتمل أركان الأسرة الطبيعية ذات المودة والرحمة والمكونة من الأب والأم والأطفال ، وليكون هؤلاء الأطفال قرة أعين وزينة الحياة لأسرهم الجديدة ، قال تعالى " المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا " (الكهف / ٤٦) .

وخلال مراحل الحمل وقبل ميلاد الطفل وتجهيز الأسماء للقادم – أو المولود – الجديد ، يأمل الوالدان أن يرزقا بطفل جميل أو طفلة جميلة أكثر شبها بالوالدين ، على خلقية أنه – أو أنها– يمثل امتدادا بيولوجيا لهما حاملا لبصمات جينات وراثتهما الممتدة من الأجداد -- عبر الآباء – إلى الأحفاد ، ووريثاً للعائلة بعد عمر

طويل،كما يأمل الوالدان أيضا أن يكون طفلهما المولود طفلا نموذجيا : سليم الجسم ، قوى الحواس، جميل الخلقة، موهوب الذكاء ، مرهف الحس والوجدان وكأنه ملاك .

ليس هذا فحسب ، ولكن لم يخطر بعقل الزوجين أو الوالدين أو يخطر على قلبيهما أن يكون طفلهما القادم طفلا معوقا ، سواء حدثت هذه الإعاقة خلال الحمل أو أثناء الولادة أو بعدها لسبب معلوم أو مجهول إلى حين ، تلك الإعاقة التي تقع على الوالدين وقع الصدمة العنيفة غير المتوقعة التي تهز أركان كيانهما الوجداني ، وتشكل في الوقت ذاته مأساة مروعة وكابوسا نفسيا مزمنا ينغص حياة أسرة الطفل المعوق ، ربما خشية ملامة – وشماتة- الناس دون إدراك الحكمة الإلهية من الابتلاء ، قال تعالى (فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) (المائدة / ٤٤) ، (فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون)(البقرة / ١٥٠) .

كما أن قبول ميلاد – أو وجود – طفل معوق في الأسرة يمر بعدة مراحل تتخللها اتجاهات والدية متأرجحة ومشاعر وجدانية متأججة في معظم الأحيان ، بداية من مرحلة (صدمة الاكتشاف) التي تعقد فيها ألسنة الوالدين وتسود في وجهيهما الحياة وهما لخبر الإعاقة كاظمين ، وحتى مرحلة (حقيقة الاعتراف) وقبول الإعاقة نفسيا والتكيف معها اجتماعيا ، رغم أن الإعاقة ابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين من أجل اختبار القلوب وتمحيص الصدور وكشف معادن النفوس الإنسانية من جودة أو رداءة .

ويحدد عبد العزيز الشخص ، نبيل عبد الفتاح حافظ (٢٠٠٤) المراحل المتتابعة لردود أفعال الوالدين تجاه إعاقة الطفل ، على النحو التالى :

<u>مرحلة (عدم الوعي) بالمشكلة وإنكارها :</u> وتتمثل في الاستجابات التالية :

١- إنكار وجود الإعاقة ، ويعتبر هذا من قبيل وقاية الذات من الحقائق المؤلمة .

٢- إلقاء اللوم على طبيب أمراض النساء والتوليد ، ثم على طبيب الأطفال لفشلهما في مساعدة الأم على إنجاب طفل سليم ، وقد يلقي أحد الوالدين اللوم على الآخر بسبب عوامل الوراثة .

٣- تأجج مشاعر الإثم إزاء مسئولية الوالدين عن إنجاب طفل معوق .

٤- ظهور المخاوف من الآثار السلبية المترتبة على الإعاقة في حياة الطفل .

٥- الحداد والأسى على نصيبهما الذي أعطى لهما طفلا معوقا .

٦- الانسحاب من المجتمع وإخفاء الطفل عن الزوار وإنكار وجوده ، وقد يصل الأمر إلى إدعاء موته .

مرحلة الوعي بالمشكلة والتعرف عليها

ويتم هذا حين لا يجد الوالدان مفرا من طرق أبواب المتخصصين وعلى رأسهم الأطباء والأخصائيين النفسيين وغيرهم الذين يحددون لهم – بعد الفحص والبحث – معالم المشكلة وأبعادها ، واحتمالاتها ومآلاتها ، وآفاق علاجها أو التخفيف من آثارها .

مرحلة البحث عن (سبب) المشكلة

وهنا يجاهد الوالدان في محاولة تلمس الأسباب التي أدت إلى الإعاقة ، ربما حتى لا ينجبا طفلا معوقا مرة أخرى ، أو ليتثبتا من العوامل التي أدت إلى تلك الحالة الإعاقية.

مرحلة البحث عن (علاج) للمشكلة

وهنا يطرق الوالدان أبواب العيادات والمستشفيات للعلاج ، وكذا الذهاب إلى المدارس والمؤسسات المعنية لتحديد نوع برامج التربية الخاصة الملائمة لطفلهما المعوق . كما تشهد هذه المرحلة اشتراك الوالدين – عن اقتناع تام – في تحديد

المسار التربوي الذي سينتظم فيه طفلهما في ضوء تقييم حالته ، ومن ثم التفكير في آفاق التقدم في العلاج الجسمي والنفسي والتربوي والاجتماعي لكي يطمئنهما على مستقبل طفلهما .

مرحلة (تقبل) المشكلة والتكيف معها

هذه المرحلة التي تشهد تقبل الأسرة لطفلها المعوق كما هو عليه ، هذا التقبل الذي يجب أن يكون إيجابيا وغير مشروط ، وأن تتقبل الأسرة دورها مع الطفل في المنزل والروضة والمدرسة والمجتمع ، كما تشهد هذه المرحلة قيام الأسرة بالمساعدة والمشاركة – مع المتخصصين – في تربية ومساعدة الطفل على النمو والتعلم والتدريب والتأهيل وفقا لقدراته وإمكاناته التي يملكها بالفعل .

ثالثا : بعض الاتجاهات الوالدية نحو الإعاقة

Parental Attitudes Handicapped child

تعبر الاتجاهات النفسية عن : مكونات نفسية (معرفية – وجدانية – نزوعية) تتكون من الخبرات الشخصية والمواقف الإنسانية التي يمر بها الفرد خلال مراحل حياته ، وتحدد نوعية استجابته – إيجابيا (قبولا) أو سلبا (رفضا) – للأفكار والأشياء والمؤسسات والقضايا والأحداث والأشخاص وغيرها ذات الخصائص الجدلية ، كما أن هذه الاتجاهات تتأثر بعوامل تكوينها في البيئات الثقافية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية وغيرها .

وعلى هذا ، فإن الاتجاهات الوالدية نحو الطفل تعبر عما يراه الوالدان وما يستخدماته من أساليب التعامل مع الطفل في مواقف الحياة اليومية خلال مراحل وعمليات التنشئة الاجتماعية ، كما ترتبط هذه الاتجاهات بنوعية ما تحمله الخبرات السابقة لدى الوالدين من مشاعر سارة أو مشاعر مؤلمة تجاه الطفل منذ لحظات ميلاده وخلال مسيرة حياته ، ولذا فإن الاتجاهات الوالدية قابلة للتعديل طبقا لما يحدث في بيئة التفاعل الاجتماعي في المحيط المجتمعي .

ليس هذا فحسب ، ولكن الاتجاهات الوالدية قد تختلف من طفل إلى آخر حسب معطيات مختلفة نوعه (ذكر / أنثى) ، ترتيب ميلاده ، درجة الشبه بالوالدين ، نموه العام ، مستوى ذكائه ، قدراته ومواهبه ، سلامته الصحية ، طفل ذكر مع بنات ، طفلة أنثى مع ذكور ، طفل وحيد أو طفلة وحيدة ، درجة إعاقته ، ومن هنا قد تختلف الاتجاهات الوالدية تجاه الطفل العادي عنها تجاه الطفل المعوق وفقا لثقافة المجتمع ودرجة تطوره الحضاري .

وتحدد إيمان فؤاد كاشف (٢٠٠٠) أن الاتجاهات الوالدية نحو الطفل المعوق تظهر في عدد من الاستجابات التالية :

١- قبول الطفل بإعاقته ، وفي هذه الحالة يتقبل الوالدان الإعاقة بطريقة موضوعية ويظهران الوفاء له .

٢- الاستجابة الاستنكارية : وفيها ينكر الوالدان أن الإعاقة تسبب للطفل أى نوع من التأثير الانفعالي والعاطفي ، وفي هذه الحالة لا يبدو أن الوالدين يقبلان القصور الذي تفرضه الإعاقة .

٣- الحماية الزائدة : وفيها يسيطر على الوالدين الشعور بالشفقة تجاه الطفل ، ويظهر ذلك في زيادة حمايتهم له وشدة المحافظة عليه .

٤- الرفض المستتر : وفيها يعتبر الوالدان أن الإعاقة نوع من العار ، وتبدو الاتجاهات السلبية تجاه الطفل والضيق منه متخفية تحت شعار الاهتمام برعايته والمبالغة في واجبات الوالدين نحوه .

٥- الرفض الصريح : وفيها يظهر الوالدان مشاعر عدوانية نحو الطفل صراحة وقد يبدو ذلك في مظاهر شتى ظاهرة أو مستترة .

ويضيف عبد العزيز السرطاوي ، كمال سالم سالم (١٩٨٦) ، أن المشاعر التي يمر بها الزوجان بعد ولادة طفل معوق تتعدد وتتعاقب كما يلي :

١- مرحلة الصدمة chock stage : حيث يصاب الوالدان بصدمة عندما يعلمان أن طفلهما معوق .

٢- مرحلة الإنكار Denial stage : تتمثل في رفض الوالدين إعاقة طفلهما ، والتشكك فيما يقوله المختص نتيجة عدم الثقة في التشخيص .

٣- مرحلة الغضب Anger stage : وتتمثل في تأكد الوالدين فعليا أن طفلهما يعاني إعاقة ما ، وذلك بعد الرجوع لأكثر من أخصائي ، فيغضب الوالدان لكون الحظ لم يحالفهما في إنجاب طفل سليم من ناحية ، ولأن أحلامهما لم تتحقق من ناحية أخرى .

٤- مرحلة الشعور بالذنب Guilty stage : حيث يشعر الوالدان بالذنب وتأنيب الضمير إزاء إعاقة طفلهما ، اعتقادا منهما بأنهما معا أو واحدا منهما هو السبب في هذه الإعاقة .

٥- التقبل والاعتراف Acceptance & Recognition stage : بعد أن يقتنع الوالدان أن الأمر قد حدث فعلا ، وأنه لا مجال للتراجع أو العلاج ، وأنه لا مجال أيضا لإلقاء اللوم على أحد الأطراف ، فإنهما يجدان أن عليهما أن يتقبلا طفلهما بوضعه الحالي كما هو عليه .

وبناء على ما سبق ، فنحن في حاجة ماسة إلى ثقافة جديدة تنظر إلى الإعاقة نظرة جديدة في إطار حضاري ، ثقافة ترى الأطفال المعوقين بقلوب رحيمة وتدرك عن بصيرة حكمة الابتلاء بالإعاقة ، ثقافة تؤمن بأن قيم التفاضل بين الناس لا تقف عند حدود الحالة البدنية أو سلامة الحواس الظاهرية ، ولكن تتعداها إلى قيم التقوى والإيمان كأساس يتساوى فيه الجميع أمام الله سبحانه وتعالى دون مناهضة أو تمييز

ثقافة تقوم على أنسنة العمل التربوي والاجتماعي والنفسي مع هؤلاء الأحبة من أهل الابتلاء بالإعاقة .

رابعا : الإعاقة بين المنطق البشري والمنطق الإيماني

تجدر الإشارة إلى توضيح بعض الفروق البيئية بين منطقين يفكر بهما بعض الناس تجاه حدوث الإعاقة والآثار المترتبة عليها ، وانعكاسات هذا المنطق أو ذاك على رؤية الإعاقة من الداخل والخارج الإنساني وهما :

١- منطق العقل البشري في رؤيته للإعاقة

فأصحاب هذا المنطق البشري المحدود بحبهم الشديد للحياة الدنيا ونسياتهم للحياة الآخرة قاصرون عن فهم أقدار المشيئة الإلهية فيما جرت به المقادير في الملأ الأعلى ، فهم ينظرون بالعيون الخارجية التي قد لا يبصرون بها حكمة الابتلاء بالسراء أو الضراء ، حيث تأتي الحياة الدنيا في مقدمة آمالهم ، فهم يحبونها حبا شديدا ، قال تعالى : (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) (إبراهيم /٣) ، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى يحقق لهم غايتهم الدنيوية ويؤخر لهم مآلاتهم الأخروية وما بها من عذاب النار ، قال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا) (الإسراء / ١٨) .

كما أن أصحاب هذا المنطق العقلي البشري القاصر عن بلوغ الأسباب وإدراك الحكم الإلهية في الابتلاء ، يعتبرون الإعاقة من (أنواع المصائب) التي تصيب الأطفال وتسبب للأسر الحزن والألم والشقاء وربما السخط على القدر الإلهي ، ومن ثم فهم يشعرون تجاه وجود الإعاقة باليأس والقنوط والإعراض والشرك والكفر والعياذ بالله ، ذلك لأنهم يريدون عرض الحياة الدنيا ذات المتاع القليل الزائل ولا يدركون ما في دار البقاء (الآخرة) من نعيم مقيم دائم في جنة الخلد لأصحاب الجنة

وعذاب أليم في نار جهنم لمستحقيه ، قال تعالى : (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (التوبة / ٣٨) ، (متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (آل عمران /١٩٧) ، (متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد) (يونس /٧٠) ، (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) (النساء / ٧٧) ، (بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) (الأعلى / ١٦-١٧) .

كما أن أصحاب هذا المنطق العقلي البشري القاصر عن إدراك أقدار المشيئة الإلهية فيما يتعلق بقضية الإعاقة :

أ- يدهشون ولا يصدقون أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار التي أعدها له المشركون ، فإن النار التي تلقت الأمر الإلهي بتغيير طبيعتها لم تحرقه وكانت عليه بردا وسلاما ، قال تعالى:(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) (الأنبياء / ٦٨-٧٠) .

ب - يدهشون ولا يصدقون أن فتية أهل الكهف عندما اعتزلوا قومهم الذين أشركوا بالله وأووا إلى الكهف ، كان ذلك رحمة ورفقا بهم وخيرا وحماية لهم ونشرا لقضيتهم الإيمانية التي توكلوا على الله فيها ، فزادهم الله هدى ، قال تعالى : (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) (الكهف / ١٦) .

ج- يدهشون ولا يصدقون أن حماية سيدنا موسى عليه السلام من الهلاك والخوف عليه وهو طفل رضيع من بطش فرعون وظلمه ، كان في قيام أم موسى بإرضاع

طفلها وإلقائه في البحر تنفيذا للأمر الإلهي ، قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) (القصص / ٧) .

١- منطق القلب الإيماني في رؤيته للإعاقة :

وأصحاب هذا المنطق الإيماني المتعلق بحبهم الشديد لرؤية الله سبحانه وتعالى في الحياة الآخرة وعدم نسيان نصيبهم من الدنيا ، يؤمنون إيمانا عميقا بأقدار المشيئة الإلهية فيما جرت به المقادير في صحف العلا ، فهم يبصرون ببصيرة القلب الداخلية ما يبصرون من حكمة الابتلاء بالسراء والضراء ، حيث تأتي الحياة الآخرة في مقدمة آمالهم باعتبارها دار الخير والبقاء والخلود الأبدي ، قال تعالى : (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) (يوسف /٥٧) ، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى يحقق لهم غاياتهم الأخروية وما فيها من نعيم الجنة ، قال تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا)(الاسراء/ ١٩)

كما أن أصحاب هذا المنطق الإيماني الذين يؤمنون بحكمة الله سبحانه وتعالى في الابتلاء ، يعتبرون الإعاقة من (أنواع الابتلاء) التي يبتلى بها بنو الإنسان ويقبلونها كقضاء وقدر ، مع الصبر الجميل تجاهها ، ودفع البلاء قدر الاستطاعة ، واحتساب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم فهم يشعرون تجاه وجود الإعاقة بأنهم في موقف اختبار لتمحيص القلوب وامتحان النفوس ، ولهذا فهم يجتهدون – صبرا ودفعا ودعاءً – من أجل الفوز بنعيم الجنة في الحياة الآخرة ، قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) (محمد / ٣١) ، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (آل عمران / ١٤٢) ،

(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل / ٩٦) ، (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء /٣٥) .

كما أن أصحاب هذا المنطق الإيماني الممتثلين لأوامر الله سبحانه وتعالى ، يدركون ما وراء قضية الإعاقة من حكمة إلهية ، ولذلك فهم :

أ- يؤمنون ويصدقون أن الذي عنده علم من الكتاب في عهد سيدنا سليمان عليه السلام قد نقل عرش بلقيس ملكة سبأ قبل لمح البصر ، وقبل عصر تكنولوجيا الاتصال في العصر الحديث الذي يعجز عن مجرد التفكير في هذا العمل الإعجازي ، قال تعالى (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) (النمل / ٤٠) .

ب- يؤمنون ويصدقون أن سيدنا موسى عليه السلام عندما خرج من مصر هربا من فرعون وجنوده ، فإن طريقا في البحر فتح له بإذن الله لينجو هو ومن معه ويغرق فرعون وجنوده ، قال تعالى : (فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معي ربي سيهدين) (الشعراء / ٦١) ، (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) (طه / ٧٧)

ج- يؤمنون ويصدقون أن الرسول صلى الله عليه وسلم – بعد عام الحزن – قد أسري به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به إلى السماوات العلا عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، في فترة وجيزة قد تغير فيها

قانون الزمن ولم يتغير فيها دفء فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) (الإسراء /١) ، (ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى .عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (النجم /١١- ١٨)

وبناء على ما سبق ، فإن كلاً من أصحاب المنطق البشرى القاصر عن إدراك حكمة الابتلاء الإلهي الذين يرون في الإعاقة مصيبة كبرى قد حلت بالطفل المعوق ، وهؤلاء أصحاب المنطق الإيماني المدركين لحكمة هذا الابتلاء بالإعاقة ، الصابرين عليها ، الدافعين لمضارها قدر المستطاع ، يمدهم الله سبحانه وتعالى كل حسب الخصائص الوجدانية لطبيعتهم الإنسانية ومنطقهم العقلي أو القلبي الذي يفكرون به ولكن الله فضل المؤمنين الذين اشتروا الحياة الآخرة بالحياة الدنيا ، عن أولئك البعض الذين اشتروا الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، قال تعالى : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) (الإسراء / ٢١) .

خامسا : الإعاقة بين حدوث الابتلاء (تسييرا) وفعل المصيبة (تخييرا)

يخلط البعض بين الإعاقة كابتلاء بالمضار يخرج عن إرادة الإنسان في إطار قضية التسيير الإلهي ، عبر تلك الأفعال التي (تقع على) أو(تقع في) الإنسان حيث لا اختيار له فيها ، وبين المصيبة التي تصيب الإنسان بما قدمت يداه في إطار قضية التخيير الإنساني ، عبر تلك الأفعال التي (تقع من) الإنسان حيث مواقع

الاختيار ومواقف التفضيل ، وبالتالي فإن استجابة المحتسبين لحكمة الله سبحانه وتعالى غير استجابة المتسخطين على القدر الإلهي فيما يتعلق بقضية الإعاقة ، ولذا فإن الأمر يتطلب توضيح أهم الفروق البينية بين هذين المفهومين ، وذلك على النحو التالي :

بالنسبة لحدوث الإعاقة في إطار التسيير الإلهي

تنتظم الإعاقة التي تحدث للإنسان كابتلاء بالمضار دون إرادة منه ، في عدد من الخصائص التي تحدد طبيعة الإعاقة وخصائصها في ضوء القرآن الكريم ، ومن أهمها :

١- تعد الإعاقة التي تحدث (في) الطفل أو تقع (عليه) من الأقدار الإنسانية التي جرت بها المقادير الإلهية في الملأ الأعلى ، فقد سبق في علم الله الأزلي أن الإعاقة كابتلاء ستصيب إنساناً ما دون إرادة من هذا الإنسان ، لمعرفة طبيعة الإنسان في علاقته بالإيمان والصدق والصبر والصدق والجهاد والدفع والتوكل على الله من عدمه ، قال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) (محمد /٣١).

٢- أن الإعاقة تمثل ابتلاء إلهيا للناس لامتحان ما في صدورهم وتمحيص ما في القلوب واختبار ما في النفوس ، ومن ثم اكتشاف وتحديد نوعية الطبيعة الإنسانية من حيث الجودة والرداءة ، قال تعالى : (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (آل عمران / ١٥٤) ، (يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) (هود/٥)

٣- أن استجابة المؤمنين الصابرين الذين يصابون بالابتلاء دونما اختيار منهم في إطار التسيير الإلهي ، يجب أن تقوم على الإيمان والرضا والصبر ودفع البلاء

قدر المستطاع ، والتسليم بقضاء الله والاحتساب والتوكل على الله ، قال تعالى : (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (البقرة /١٥٦-١٥٧)

٤-أن الإعاقة كابتلاء إلهي للناس ، قد يكون فيها خير لا يعلمه الإنسان ، فما قد يظنه الإنسان شرا وسوءا قد يكون فيه خير وفير وما يحسبه خيرا قد يكون شرا كبيرا ، ولكنه لا يدرك الحكمة الإلهية من هذا أو ذاك ، ولا يدري ما تخبئه الأقدار وما جرت به المقادير ، فكل مسير لما خلق له ، قال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة /٢١٦)) ، (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (النساء/١٩) .

٥- أن الإعاقة كابتلاء إلهي للناس ، تحدث دون قصد أو إرادة من الإنسان ، فلا يختار أحد إعاقته ولا يختار له الآخرون نوعية هذه الإعاقة ، فالإنسان في حالة الإعاقة يكون مسيرا فيما أعيق فيه وكتب عليه سلفا ، لا مخيرا في ذلك ، قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) (القصص/٦٨) .

٦- أن الإعاقة كابتلاء إلهي للناس ، تتطلب الصبر الجميل على تبعاتها ودفع البلاء قدر المستطاع ، والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء المستجاب لكشف الضر الذي ألم بالإنسان ، والتوكل على الله حق توكله ، قال تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (التوبة /٥١) ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) (الطلاق / ٣) .

٧- أن الصبر على ابتلاء الإعاقة ودفع مضارها قدر المستطاع ، في إطار من الرضا بقضاء الله وقدره واحتساب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى ، يؤهل أصحابها وأسرهم المبتلاة – إلى الفوز بنعيم الجنة في الحياة الآخرة ، قال تعالى (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) (الإنسان /١٢، ١٣) ، (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل / ٩٦) .

بالنسبة لفعل المصيبة في إطار التخيير الإنساني

تنتظم المصائب التي يرتكبها الإنسان بما قدمت نفسه واكتسبت يداه في الحياة الدنيا ، في عدد من الخصائص التي تحدد طبيعة المصيبة وخصائصها في ضوء القرآن الكريم ، ومن أهمها :

١- تعد المصيبة التي تقع (من) الإنسان من الأقدار الإنسانية التي جرت بها المقادير الإلهية في الملأ الأعلى ، فقد سبق في علم الله الأزلي أن المصيبة التي يقوم بها الإنسان بقصد وإرادة ، رغبة منه في التمتع بمباهج الحياة الدنيا ، ستصيب هذا الإنسان أو ذاك في الزمان والمكان اللذين حددهما الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) (الشورى /٣٠-٣١) ، (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) (الحديد / ٢٢) .

٢- أن المصيبة التي تصيب بعض الناس بما قدمت أيديهم كالشرك بالله ، والزنا ، وتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، وغيرها من الموبقات ، تمثل انحرافا متعمدا

عن الطريق المستقيم الذي رسمه الله للناس عبر الأنبيـــاء والرســل والكتــب السماوية ، قال تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا) (النساء /٣٦) ، (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) (النساء /٤٨) ، (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) (الإسراء /٣٢) .

٣- أن استجابة المشركين الذين يصابون بالمصائب والسيئات بما قدمت أيديهم عن قصد وسبق إصرار ، تقوم على الكفر والــرفض والســخط والجــزع واليــأس والقنوط ، قال تعالى : (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) (الروم / ٣٦) ، (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) (الشورى / ٤٨) ، (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط) (فصلت /٤٩) .

٤- أن المصيبة التي تصيب بعض الناس بما قدمت أيديهم – تتطلب من صاحبها أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى ، وإن لم يفعل ذلك فإن مصيره إلى عذاب النار ، فالمصائب شرور تصيب الإنسان من عند أنفسهم وتؤدي بهــم إلــى التهلكــة والخسران المبين ، قال تعالى :(ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) (يونس /٥٢) ، (فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) (القصص / ٨٤) .

٥-أن المصيبة التي تصيب بعض الناس بما قدمت أيديهم ، يقوم بها الإنسان عــن قصد منه وهو يعلم أن هذا السلوك المشــين يغضــب الله ســبحانه وتعــالى ، فالإنسان في حالة المصيبة يكون مخيرا فيما يفعل من سيئات لا مســيرا فيمــا

لا يعلمه أو يقع فيه أو عليه ، قال تعالى: (بلى من كسب من سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة / ٨١) ، (من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) (النساء /١٢٣)

٦-أن المصيبة التى تصيب بعض الناس بما قدمت أيديهم وهم يجهلون ، تتطلب الإقلاع عنها فورا والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بطلب التوبة النصوح والمغفرة ، وعدم العودة إلى ارتكاب المعاصي ، قال تعالى (انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) (الأنعام / ٥٤) ، (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) (النساء /١١٠) .

٧- أن السخط على القضاء والقدر عند حدوث المصائب التي تقع من الإنسان بما قدمت يداه واقترفت نفسه في الحياة الدنيا ، مع استمرار هذا الإنسان في ضلاله وغيه وتحديه واستكباره ولم يتب ولم يستغفر الله سبحانه وتعالى ، فإن مثواه عذاب النار وبئس المصير في الحياة الآخرة .

سادسا : الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم

جاء القرآن الكريم بمفاهيم الإعاقة الحقيقية التي تصيب الأجسام أو العقول أو النفوس أو القلوب،فلم ينف وجودها بين الناس وإنما وقف على أسباب وجودها ؛ محاولا الحد منها خدمة للفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء ، فهناك (الإعاقات الظاهرة) كالصمم والبكم والعمي والمرض والعرج وغيرها من إعاقات أولى الضرر ، الذين رفع الله سبحانه وتعالى الحرج عنهم في بعض مجالات الحياة ، قال تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه الله عذابا أليما (الفتح / ١٧) .

ليس هذا فحسب ، ولكن هناك (الإعاقات المستترة) التي تحدث عنها القرآن الكريم ونهانا عنها الله سبحانه وتعالى ، ومنها النفاق ، والغيبة ، والنميمة ، قال تعالى (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) (الحجرات / ١٢) ، وكذا صمم الآذان السليمة ، وبكم الألسنة الفصيحة ، وعمى القلوب المريضة وغيرها من الإعاقات النفسية والقلبية التي تهبط بالإنسان الغافل عن ذكر الله سبحانه وتعالى إلى مرتبة أقل من الحيوانات ، قال الله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف / ١٧٩) ، ومن خلال النصوص القرآنية التي ذكرت المعوقين نجد ما يلي :

أ- أن (المعوقين) الحقيقيين الذين يصدون المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله ، هم المنافقون الذين يثبطون من عزيمة المؤمنين عن المضي قدما في سبيل نصرة الله تعالى في كل المجالات الحياتية ، فمثل هؤلاء المعوقين الذين أحبط الله أعمالهم يسمون في عالم اليوم (بأعداء النجاح) في كل مجتمع ، قال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانكم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) (الأحزاب / ١٨-١٩)

ب- ذكر القرآن بعض الإعاقات الجسمية في بعض الحواس أو بعض الأعضاء لدى الإنسان وسميت في القرآن الكريم بمسمياتها الطبيعية ، تعريفا لها لا سخرية

من أصحابها المبتلين ، مثل إعاقة العمى الحسي التي سمى صاحبها بالأعمى وليس الكفيف ، وقد عاتب الله تعالى رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم عندما عبس في وجه الرجل الأعمى ، وهو الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ، الذي جاء يستعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شئ من أمور الإسلام فلم يجبه الرسول وأعرض عنه ، وهو ما يؤكد بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى . كلا إنها تذكرة) (عبس / ١-١١) .

ليس هذا فحسب ، ولكن يرى الباحث ضرورة أن تسمى الأسماء بمسمياتها الطبيعية التي لا حرج فيها ولا حياء ، فالأعمى الذي يستطيع التعلم والعمل والزواج وغير ذلك من مهام الحياة اليومية ليس معوقا وليس عاجزا كما قد يعتقد البعض ، وكذلك الأصم والأبكم الذي يرى ما يقوم به ويمارس حياته بشكل أقرب إلى الطبيعة ليس معوقا أو عاجزا ، فالعمى ليس في العيون والصمم ليس في الآذان والبكم ليس في اللسان كما قد يعتقد كثير من الناس ، ولكن العمى والصمم والبكم الحقيقي يكمن في تعطيل هذه النعم عن وظائفها الطبيعية في الحياة الدنيا ، ومن ثم خسران الفوز بنعيم الجنة في الحياة الآخرة .

ج- أن الإعاقة الحقيقية لدى بني الإنسان تتمثل في أن يكون لهم أعين لا يرون بها الحق والخير والجمال ، ولهم قلوب لا يفقهون بها العلم والحكمة والمعرفة ، ولهم آذان ولكنهم لا يسمعون بها القول الكريم ، ولهم ألسن لا تنطق بذكر الله تعالى ، هؤلاء الأفراد الإنسانيون الذين يعطلون عمل هذه الحواس الخارجية والداخلية يهبطون إلى رتبة أقل من الأنعام ، من كثرة واستمرار الغفلة في

الحياة الدنيا عن ذكر الله ، وعن أفعال الخير ، والكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والخلق الكريم ، قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)(الأعراف / ١٧٩) .

كما أن بعض الناس الذين لا يستخدمون قلوبهم في تفقه السنن الكونية أو تدبر القرآن أو تعقل المواقف الحياتية ، ولا يستخدمون آذانهم في الاستماع إلى كلام الله ولا يستخدمون ألسنتهم في ذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يستخدمون بصائرهم في رؤية الحلال والبعد عن الحرام ، هم المعوقون حقا ، الذين عطلوا مسيرة الحياة الطبيعية لحواسهم وعقولهم ، فظلموا أنفسهم رغم تمتعهم بمباهج الحياة الدنيا الزائلة ذات المتاع القليل ، إنها إعاقات القلوب والوجدان ، قال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة . فهي خاوية على عروشها . وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (الحج/ ٤٥-٤٦) .

المحور الثاني
مفهوم الابتلاء وأهم خصائصه في ضوء القرآن الكريم

يتناول هذا المحور محاولة الإجابة عن التساؤل الفرعي (الثاني) الذي طرحته قضية الدراسة الحالية ، ويدور حول توضيح مفهوم الابتلاء وأهم خصائصه في ضوء القرآن الكريم ، وكيف أن الابتلاء يكون بالخير أحيانا وبالشر أحيانا أخرى ، وكيف أن ابتلاء السراء يتطلب من الإنسان الشكر الجزيل وأن ابتلاء الضراء يتطلب من الإنسان الصبر الجميل ، وكيف أن لطبيعة الإنسان خصائص وحالات وجدانية قد تتفق مع ابتلاء السراء وقد تختلف مع ابتلاء الضراء ، الأمر الذي يمكن توضيحه على النحو التالي :

أولا : مفهوم الابتلاء في ضوء القرآن الكريم

الابتلاء في أصل اللغة من : بلاه , يبلوه , بلواً وبلاء , وابتلاه : اختبره ، وجربه وعرفه . والبلاء : المحنة تنزل بالمرء ليختبر بها ،ويكون البلاء في الخير والشر، وفي التنزيل الحكيم (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء / ٣٥) (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (الأعراف / ١٦٨) ، (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) (محمد / ٣١) ، فالله سبحانه وتعالى يبلي ، العبد بلاء حسنا وبلاء سيئا ، ليختبر شكره وصبره ، ويأتي البلاء بمعنى النعمة كما في التنزيل (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم)(الأنفال / ١٧) ، (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) (الفجر /١٥) ، (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) (النمل / ٤٠) ، (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) (التغابن / ١٥) .

ويستعمل أصل البلاء في الفناء والعطب والتلف ونحوه ، فيقال بلى الثوب إذا تلف ، ثم صار يستعمل الابتلاء في الاختبار ، كأنه أتلفه من كثرة الاختبار له ، أو أن الاختبار يؤدي إلى التلف ، " ومعنى ابتلاء الله : اختباره ، واختباره لا لمعرفة شأنه بل لتتبين حالته من جودة أو رداءة يعرف بها نفسه ، قال تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون) (الجاثية /١٥) ، (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (فصلت /٤٦) .

ثانيا : خصائص الابتلاء في ضوء القرآن الكريم

ينتظم مفهوم الابتلاء – في علاقته بالإعاقة – في عدد من الخصائص التي توضح معانيه ، والتي يمكن توضيحها على النحو التالي :

١ـ الابتلاء سنة ماضية باقية من سنن الله سبحانه وتعالى إلى يوم الدين (القيامة)

تمثل قضية الابتلاء قضية أساسية في هذا الكون العظيم ، فابتلاء الإنسان في خلق السماوات والأرض ، ليسكن هذا الإنسان سطح الأرض من أجل تعميرها وينفذ إلى أقطار السماوات بسلطان العلم ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ليحاسب على أعماله التي قام بها في ابتلاء الشر وابتلاء الخير ، قال تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (هود / ٧) ، (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (الملك / ٢) ، (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء /٣٥) ، فالحياة الدنيا تقوم كلها على اختبار الإنسان في الابتلاء بينما يقوم الحساب في الحياة الآخرة على نتائج الابتلاء ومدى النجاح فيه .

كما يعد الابتلاء بالشر والخير سنة كونية من سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه من بني الإنسان في كل زمان ومكان ، سنة ماضية باقية منذ بدء الخلق وحتى نهاية الحياة على الأرض لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وعلى الإنسان المؤمن أن يتعرف على هذه السنن الإلهية ويتدبر آياتها ومعانيها ، لكي يتعلم منها ويتعامل معها تعاملا دينيا صحيحا يحصل به على خيرها بالشكر في السراء ويتقي به شرها بالصبر على الضراء ، (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (المائدة / ٤٨) ، تلك السنن الإلهية الخالدة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول في ناموس الكون العظيم ، مصداقا لقوله تعالى (فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا) (فاطر /٤٣)

٢-الابتلاء مواقف اختبار وامتحان للإنسان المؤمن في الحياة الدنيا

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى منذ بداية الخلق أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وامتحان لما في الصدور وتمحيص لما في القلوب وتطهير لما في النفوس من الأدران وإخلاص العبودية لله سبحانه وتعالى ، قال تعالى : : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) (الإنسان / ٢) ، (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (آل عمران / ١٥٤) ، (ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (العنكبوت / ١-٣) .

ليس هذا فحسب ، ولكن الابتلاء بالسراء أو الضراء يكشف حقيقة الإنسان خاصة فيما يتعلق بالشكر في ابتلاء الخير والصبر في ابتلاء الشر ، ولا سيما أن النجاح في هذه الابتلاءات هو المدخل الطبيعي لدخول الجنة كما أخبرنا رب العزة جل وعلا ، قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم

ويعلم الصابرين) (آل عمران / ١٤٢) ، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) (البقرة / ٢١٤) .

٣- ابتلاء الإنسان يكون بالمسار أحيانا والمضار أحيانا أخرى .

على هذا ، فإن الابتلاء قد يكون بالشر والمضار أحيانا وقد يكون بالخير والمسار أحيانا أخرى ، فصارت كل من المحنة والمنحة ابتلاء ، فابتلاء المحنة يقتضي الصبر معها وابتلاء المنحة يقتضي الشكر عليها ، والابتلاء بالخير أشد وطأة على الإنسان من الابتلاء بالشر ، ذلك لأن القيام بحقوق الصبر على ابتلاء الشر أيسر من القيام بحقوق الشكر على ابتلاء الخير ، فصارت المنحة أعظم أنواع الابتلائين ، قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الانبياء /٣٥) . كما أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المتقين الصابرين على الابتلاء، قال تعالى : (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (يوسف /٩٠) ، (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة / ١٧٧) .

فالابتلاء بالشر يتمثل في الابتلاء (بالمكروه) الذي يؤلم النفس الإنسانية وتأباه كفقد الأهل أو المرض أو الفقر والإعاقة ونحو ذلك ، أما الابتلاء بالخير فيتمثل في الابتلاء (بالمحبوب) الذي تحبه النفس وتهواه كالصحة والمال والولد والجاه والسلطان ونحو ذلك ، والعافية أحب إلى نفس المؤمن من البلاء ، وفي كليهما ابتلاء ، ابتلاء بالمكروه لمعرفة صبره على المحنة والنقمة ، وابتلاء بالمحبوب لمعرفة شكره على المنحة والنعمة ، قال تعالى : (واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) (يونس/ ١٠٩) ، (ولتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (آل عمران

/١٨٦) ، (وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) (النساء /٢٥) ، (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) (القصص / ٥٤) .

٤- -الابتلاء بالسراء أو الضراء كله خير في خير للإنسان المؤمن في الحياة الدنيا

يعد الابتلاء بالضراء الذي يحل بالإنسان نعمة في صورة نقمة ومنحة في صورة محنة ، وكرامة في صورة كراهة ، ومكارم نحسبها مكاره ، لكن يجب ألا نسأل الله البلاء ، بل نسأل الله العافية من البلاء ، أما إذا أبتلى الإنسان بابتلاء ما خيرا كان أم شراً (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (الأعراف / ١٦٨) ، فيجب عليه الصبر الجميل في ابتلاء الضراء والشكر الجزيل في ابتلاء السراء ، حتى ينال الأجر على شكره وصبره ، ويكون أمره كله خيراً مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : ك ٤. الزهد ، ج (٦١) (٥/٨٤٤) ط . الشعب . القاهرة .

٥-ابتلاء المؤمن الصابر غير ابتلاء الكافر الضال في الحياة الدنيا

إن الابتلاء يكون للمؤمن وللكافر على السواء مثله في ذلك مثل الرزق لجميع البشر دون استثناء قال الله سبحانه وتعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) (البقرة / ١٢٦) ، ولكن الفارق بين ابتلاء المؤمن وابتلاء الكافر يتمثل في مدى الإيمان والصبر والاحتساب وشرف الغاية وتمنى عقبى الدار الآخرة من عدمه ، قال تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا

أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (المائدة /٤١) .

أ- ابتلاء الإنسان الكافر في الحياة الدنيا:

يتناقض ابتلاء الكافر مع الصبر والحمد والاحتساب ، لأن إطاره المرجعي إطار دنيوي ، فهو ضال قنوط ، وخاب سعيه في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) (الحجر /٥٦) ، فهو يعيش حياته الدنيا من أجل الحياة الدنيا فقط لاغتنام كل ما فيها من متعة ومنفعة , كما أنه لا يضع الله تعالى في حسبانه من أجل الحياة الآخرة ، ولكنه يضع المصلحة النفعية الشخصية فوق كل اعتبار ، قال تعالى : (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي) (العنكبوت /٢٣) ، (يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزي لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قاتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) (آل عمران / ١٥٦)

ب- ابتلاء الإنسان المؤمن في الحياة الدنيا :

يتميز ابتلاء المؤمن بشرف الغاية والثقة في الله سبحانه وتعالى , لأن الإطار المرجعي إطار ديني يجمع بين الدين والدنيا ، فهو يعيش حياته الدنيا – ولا ينسى نصيبه منها –من اجل الحياة الآخرة , كما أن الله تعالى يكون في قلبه دائما دون غفلة أو نسيان ، قال تعالى :(أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم)(البقرة/٢١٨)، (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم) (الأنفال / ١٧) , حيث يبتلى المؤمن في الحياة الدنيا فيصبر ويشكر ويحتسب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى ، (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله) (الزمر / ٥٣) ، (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما) (النساء /١٠٤)

ثالثا : أنواع الابتلاء لدى الإنسان في ضوء القرآن الكريم

إن الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده المؤمنين بالمضار والمسار على قدر ما يطيقون من الصبر والاحتمال والشكر والاستغفار ونحوها ، ولا يبتلي الله تعالى عبدا بابتلاء فوق طاقته الإنسانية التي يسعها ويتحمل تكاليفها ، مصداقا لقوله تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (البقرة / ٢٨٦).

فإذا كان الابتلاء بالمضار يرتبط بالصبر الجميل عليه ودفع البلاء قدر المستطاع واحتساب الأجر والثواب عند الله ، فإن الإنسان الذي يبتلى كثيرا قد يكون أجره عند الله كبيرا ، والذي يبتلى بالشر قليلا يكون أجره عند الله على قدر ابتلائه ، بشرط أن يصبر على الابتلاء بالمضار صبرا جميلا ويحمد الله حمدا كثيرا ، ويكفي العبد الصابر على الابتلاء أن يكون في معية الله سبحانه وتعالى صبرا وتسبيحا ، قال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) (الطور /٤٨ – ٤٩)، (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر / ١٠) ، (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) (البقرة / ١٥٣) ، (والله يحب الصابرين) (آل عمران / ١٤٦) .

كما أن صبر المؤمن على الابتلاء بالشر والضراء يغسله من الخطايا ويطهره من الذنوب كما يطهر الثوب الأبيض من الدنس بالماء والثلج والبرد ، قال تعالى : : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) (المائدة / ٦) ، عن شداد بن أوس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : إن الله عز وجل يقول : (إني إذا ابتليت عبدا مؤمنا من عبادي ، فحمدني وصبر على ما بليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك ، كيوم ولدته أمه مطهرا من الخطايا ، ويقول الرب عز وجل للحفظة : إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته ، فأجروا له كما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح) (أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢٣/٤) ، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما من أحد من المسلمين يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة الذين يحفظونه ، قال : اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة مثل ما كان يعمل من الخير ما دام محبوسا في وثاقي) (أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٩٨/٢) .

وإذا كان الابتلاء بالمسار يرتبط بالشكر الجزيل عليه ودوام المحافظة على استمرار النعم التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فإن الإنسان الذي يبتلى بالخير كثيرا قد يكون أجره عند الله كبيرا والذي يبتلى باليسر قليلا يكون أجره عند الله على قدر ابتلائه ، بشرط أن يشكر الله على الابتلاء بالمسار شكراً جزيلا ويسبح الله تسبيحا كثيرا ، قال تعالى:(ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) (النمل / ٤٠) ، (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي) (النمل / ١٩) .

ليس هذا فحسب ، ولكن للابتلاء مراتب وأصناف ودرجات يبتلي بها الله سبحانه وتعالى بعض العباد ، قال تعالى : : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) (الأنعام /١٦٥) ، (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) (الفرقان /٢٠) ، وأشد الناس ابتلاء هم الرسل والأنبياء،كما أن الإنسان المؤمن يبتلى على قدر إيمانه قوة وضعفا ، عن سعد قال :

قلت يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أشد الناس بلاء ، الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلي الرجل على حسب دينه ، فإذا كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإذا كان في دينه رقة ، ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)(أخرجه الترمذي في سننه : ك . كالزهد / باب (٥٦) ، ٥٢٠/٤ ، وقال حديث حسن) ، وابن ماجة في سننه : ك الفتن – باب الصبر على البلاء (٤٩٠/٢) .

كما تنقسم الابتلاءات إلى عدة أنواع أهمها :

أ - الابتلاء بالأحداث :

فقد يبتلى الإنسان في الحياة الدنيا بالنصر كما يبتلي بالهزيمة ، ويبتلي بالمرض كما يبتلي بالصحة ، وقد يبتلى الإنسان بالمنصب والجاه والسلطان ، وقد يبتلى بالتبعية لمن هم دونه من القدرات عندما يولى الأمر لغير أهله في زمن الرويبضة حيث يختار أهل الثقة المنافقون وينحى أهل الكفاءة والمجتهدين إلى حين قال تعالى : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم) (الأنعام /١٦٥) ، (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) (الزخرف /٣٢) ، (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) (محمد / ٤) .

ب- الابتلاء بالأشخاص :

فقد يبتلى الإنسان بالتعامل مع أنماط شخصية محببة ومرغوبة كالصادق والواضح والأمين وغيرهم ، قال تعالى : (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (آل عمران / ١٧) ، وقد يبتلى بالتعامل مع أنماط شخصية منفرة ومذمومة كالكاذب والمنافق والخائن وغيرهم ، قال تعالى : : (ولا تطع كل

حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم) (القلم / ١٠) .

وقد يبتلى الإنسان بزوجة أو زوج صالح أو طالح أو ولد طائع أو عاق أو العمل مع حاكم أو رئيس عمل عادل أو ظالم ...وهكذا ، قال تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم) (الأنفال / ٢٨) ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (المائدة /٤٥) ، (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) (إبراهيم /٤٢) ، (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) (الأنعام / ٥٣) .

ج- *الابتلاء بالأشياء :*

فقد يبتلى الإنسان بزيادة في الأشياء والعطايا أو بالنقصان فيها ، ومثال ذلك الزيادة في الصحة أو المال أو الولد وهكذا ، وقد يكون الابتلاء هناك بنقص في الأموال والأنفس والثمرات وهكذا ، قال تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) (البقرة /١٥٥) ، (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) (القلم / ١٧-٢٠) .

كما قد يكون الابتلاء بالأشياء الخيرة السارة التي تتطلب الحمد والشكر على المحبوب ، أو بالأشياء الخبيثة الضارة التي تتطلب المجاهدة والصبر على المكروه ، قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء / ٣٥) ، (وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه) (الجن/ ١٦ ،١٧)، (لنبلون

في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (آل عمران / ١٨٦) .

د- ***الابتلاء بالمشاعر والأحاسيس*** :

فقد يبتلى الإنسان بمشاعر الأمن والاطمئنان ونحوها والحب ، كما يبتلى بمشاعر الخوف والكره والقلق ونحوها ، ولا يسأل الإنسان عن مشاعره التي تتولد بداخله وعليه أن يعمل العقل فيها ، ولكن يسأل عن التصرفات السلوكية التي تترتب على هذه المشاعر والأحاسيس تجاه بني الإنسان ، قال تعالى : (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين) (يوسف /٣٠) (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) (يوسف /٧٧) ، (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) (الحجر / ٤٧)

رابعا : خصائص الطبيعة الإنسانية بين ابتلاء السراء وابتلاء الضراء

لقد خلق الله الإنسان ويعلم طبيعته الإنسانية ومكوناته (الوجدانية) التي تحب منح السراء والحسنات التي تأتي من الله سبحانه وتعالى ، وتكره محن المصائب والسيئات التي يرتكبها الإنسان بما قدمت يداه ، فقد جبل الإنسان على حب الخير وما يترتب عليه ، وبغض الشر وكل ما يترتب عليه ، قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) (النساء /٧٩) .

ليس هذا فحسب ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم طبيعة الإنسان ومسيرته وصيرورته ومصيره في الحياة الدنيا والآخرة ، ومع ذلك يضعه في مواقف الاختبار والتمحيص عبر الابتلاء بالسراء والضراء ، قال تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) (الإنسان /٢) (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) (ق / ١٦) ، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (الملك / ١٤) ، (إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد) (العاديات /٨) .

فالإنسان بطبيعته البشرية التي خلق عليها يميل إلى الفرح والغبطة والسرور إذا أصابته نعمة الخير والسراء ، قال تعالى : : (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها) (الشورى /٤٨) ، (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) (الروم / ٣٦) ، كما يميل – الإنسان – إلى اليأس والحزن والقنوط إذا أصابته محنة الشر والضراء ، قال تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا) (الإسراء /٨٣) ، (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط) (فصلت /٤٩) .

ليس هذا فحسب ، ولكن على الرغم من أن الخير يمثل ابتلاء الإنسان بالمسار من أجل تحديد قدرته على الشكر الجزيل على النعم والمحافظة على استمرارها ، وان الشر يمثل ابتلائه بالمضار من أجل تحديد طاقته على الصبر الجميل على النقم ومحاولة دفع البلاء قدر المستطاع ، إلا أن هذا الابتلاء بالمسار أو المضار في الحياة الدنيا يكشف معادن بني الإنسان وطبائع البشر ومدى نجاحهم في مواجهة الابتلاء شكرا وصبرا ودفعا ، ليجزوا على هذا أو ذاك بما كانوا يفعلون في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) (القيامة /٣٦) ، (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)(الأنبياء / ٣٥) .

وقبل توضيح الخصائص الوجدانية الإيجابية أو السلبية للطبيعة الإنسانية في علاقتها بابتلاء السراء أو ابتلاء الضراء ، تجدر الإشارة إلى توضيح الجوانب الأساسية المتعلقة بهذه القضية وهى :

الجانب الأول : أن الله سبحانه وتعالى قد كتب مصائب وابتلاءات الإنسان قبل وجود هذا الإنسان على الأرض .

إن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن المصائب التي تحدث في الأرض والابتلاءات التي يصاب بها الإنسان في الحياة الدنيا ، قد كتبها الله سبحانه وتعالى كأقدار إلهية في الملأ الأعلى لحكمة يعلمها قبل وجود الإنسان على هذه الأرض ، قال تعالى :(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) (الحديد / ٢٢) ، (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم) (التغابن / ١١) ، ولهذا كان التأكيد القرآني على أن ما يصيب الإنسان في الحياة الدنيا من مصائب وابتلاءات قد كتب عليه سابقا في علم المشيئة الإلهية ولا مفر منها إلا بما شاء ، قال تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (التوبة /٥١)

ليس هذا فحسب ، ولكن يجب أن يدرك الإنسان أن الابتلاءات بالمسار أو المضار لا توزع جزافا على بني الإنسان في الحياة الدنيا ، ولكنها أقدار مقدرة بمشيئة الله تعالى لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى ولا تدركها الإرادة الإنسانية ، تلك الأقدار الإلهية لا تظلم إنسانا معينا فتصيبه بالشر والمضار ، وتنصف إنسانا آخر فتصيبه بالخير والمسار ، ولكنها ابتلاءات- ومقادير- للعزيز الحكيم ، فالله سبحانه وتعالى يبتلي بني الإنسان بما يجريه عليهم من أقدار من أجل الاختبار والتمحيص ،

قال تعالى : (وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين)(المؤمنون /٢٩-٣٠) .

الجانب الثاني :أن الله سبحانه وتعالى يهدي الخير والحسنات لبني الإنسان ، بينما الإنسان يفعل المصائب والسيئات بما قدمت يداه .

إن الله سبحانه وتعالى لا يصيب الإنسان إلا بالحسنات وبكل ما هو خير وسار ، أما السيئات والشرور والآثام التي يفعلها الإنسان فهي من صنع الإنسان ذاته ، ومن ثم فهو يظلم نفسه بما كسبت نفسه وما قدمت يداه ، قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله .وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) (النساء / ٧٩) ، (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) . (النحل / ٣٣-٣٤) ، (قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) (الزمر / ٥٠-٥١) .

ليس هذا فحسب ، ولكن تلك السيئات التي يصنعها الإنسان عن وعي وإدراك وإرادة مقصودة ، عندما توسوس له نفسه أو يوسوس له الشيطان الرجيم ليحيد بها عن الطريق المستقيم رغم التوجيه الإلهي باتباع الهدى ، تنعكس - السيئات - انعكاسا سلبيا على حياته الدنيا فيضل سعيه فيها ويصاب بالخسران المبين في الحياة الآخرة ، قال تعالى : : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (الأنعام /١٥٣) ، (إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) (الإسراء /٥٣) ، (يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات

الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) (النور / ٢١) ، (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) (النساء /١١٩) .

فالخير دائما ينزل من الله سبحانه وتعالى إلى بني الإنسان في كل زمان ومكان ، لأن الله سبحانه وتعالى بيده كل الخير في صور الرزق المختلفة قال تعالى : (ورزق ربك خير وأبقى)(طه /١٣١)(والله يرزق من يشاء بغير حساب)(البقرة/٢١٢) . (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) (آل عمران / ٣٧) ، أما الشر وكافة أنواع الإفساد والمضار التي تحدث في الأرض أو للإنسان فهو من صناعة الإنسان ذاته وما قدمت يداه في هذه الحياة الدنيا ، قال تعالى : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (الروم / ٤١) .

الجانب الثالث : أن الله سبحانه وتعالى يريد ببني الإنسان كل اليسر ، ولا يريد بهم العسر

على الرغم من أن بعض الناس قد يرون في الإعاقة نوعا من الإرهاق والعسر للأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاة ، إلا أن مثل هؤلاء الناس لا يدركون حكمة المشيئة الإلهية في الابتلاء بالإعاقة والصبر عليها والدفع لبلائها ، فما يعتقده الإنسان شرا قد يكون فيه خير كثير والله أعلم وأكثر الناس لا يعلمون ، فالله سبحانه وتعالى يريد ببني الإنسان كل اليسر ولا يريد بهم أي عسر ، قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (البقرة / ١٨٥) .

ليس هذا فحسب ، ولكن مع ابتلاء الإعاقة لدى الأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا ينسى هؤلاء المبتلين الصابرين الدافعين للبلاء والمتوجهين إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء لكشف الضر عن أطفالهم ، فيكون معهم

سبحانه وتعالى في محنتهم الضراء ويساعدهم - بمشيئته - على استبدال الرحمة والرفق والرجاء والفرج واليسر بالضيق والضغط واليأس والإرهاق والعسر ، قال تعالى : (فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا) (الشرح / ٥-٦) ، (سيجعل الله بعد عسر يسرا) (الطلاق / ٧) .

الجانب الرابع : إن الله سبحانه وتعالى في ابتلائه بالمنح سخاء ، وفي ابتلائه بالمنع عطاء

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الخلق - من الجن والإنس - لعبادته وإعمار الأرض وإصلاحها ، قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات / ٥٦) ، (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) (الأعراف / ٨٥) ، وللمشيئة الإلهية في خلق الأشياء والموجودات الحية وغير الحية شئون وتقدير يعلمه العزيز الحكيم ، قال تعالى : (ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا) (الفرقان / ٢) ، (إنا كل شئ خلقناه بقدر)(القمر / ٤٩) ، (إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا) (الطلاق / ٣)،(وكل شئ عنده بمقدار) (الرعد/٨) .

ليس هذا فحسب ، ولكن في منح الله سبحانه وتعالى الخير للإنسان ابتلاء وفي منعه الشر عن الإنسان ابتلاء أيضا ، فمنح الله سبحانه وتعالى الصحة للإنسان يمثل ابتلاء فيه سخاء (للنعمة) ومنع الله سبحانه وتعالى المرض عن الإنسان يمثل ابتلاء فيه عطاء (الصحة) ، والمنح للإنسان والمنع عنه يكون بقدر معلوم لحكمة إلهية يعلمها علام الغيوب ، قال تعالى : (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (الحجر/ ٢١) ، (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) (الشورى /٢٧) ، كما أن العطاء والمنع من الله خير

لبني الإنسان ، فالله سبحانه وتعالى بيده الخير في كل الأحوال منحا ومنعا ، قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) (آل عمران / ٢٦) .

الجانب الخامس: إن علم الله السابق بالأقدار ، لا يعطل – ولا يلغي - إرادة الإنسان وحريته في الاختيار.

إن الله سبحانه وتعالى قد هدى الإنسان إلى استخدام العقل والقلب في الاختيار والتفضيل لكل ما يريد في حياته الدنيا ، قال تعالى : (ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين) (البلد / ٨-١٠) ، وإن علم الله سبحانه وتعالى بما سبق كتابته من مقادير في الملأ الأعلى ، لا يتعارض مع إرادة الإنسان في الاختيار والنزوع إلى الأعمال ، قال تعالى : (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) (الإنسان /٢٣) ، فالإنسان يختار لنفسه بإرادته طريقة التي علم الله بعلمه المحيط أنه سيختارها ، وأثبتها في اللوح المحفوظ قبل وجود الإنسان ، وعلى هذا فإن الإنسان المكلف يتحمل مسئولية أعماله ونتائج اختياراته التي سبق علم الله سبحانه وتعالى بها ، قال تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره) (القيامة / ١٤)، (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (الإسراء / ١٤) .

وعلى هذا ، فإن ما يصاب الإنسان به من مصائب في الحياة الدنيا يكون من صنع الإنسان الذي يحدثها عن قصد وإرادة وإدراك ، فبنو الإنسان هم الذين يقدمون بأيديهم كل ما يصيبهم من مصائب يفعلونها وسيئات يقترفونها في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن

الله على كل شئ قدير) (آل عمران / ١٦٥) ، كما أن أعظم المصائب هي الكفر والشرك بالله الذي يؤدى إلى عذاب النار (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (المائدة / ٧٢) ، ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم لبني الإنسان ألا يضروا أنفسهم بالخروج عن منهج الله سبحانه وتعالى، قال تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) (البقرة / ١٩٥) .

الجانب السادس : أن ارتكاب الإنسان للمعاصي والمصائب يمثل النتيجة الطبيعة للفعل الإنساني الإرادي المقصود

يقول أهل اللغة العربية المتخصصون فيها إن هناك ثلاثة أنواع من الأفعال المرتبطة بالإنسان في الحياة الدنيا ، فعل يقع (على) الإنسان ، وفعل يقع (في) الإنسان ، وفعل يقع (من) الإنسان ، فأما النوعان الأولان من الأفعال لا اختيار للإنسان فيهما ، فالإنسان فيهما مسير والاختيار فيهما من الله أقدار لا دخل للإنسان فيها ، وعليه فإن الله سبحانه وتعالى لا يحاسب الإنسان على الأمور التي يكون مسيرا فيها ، أما النوع الثالث (يقع من) فإن الإنسان يقوم بالفعل الحقيقي عن رغبة وقصد واختيار ، فهو فيه مخير لأن يفعل هذا أو ذاك وفقا لما يريد ، وعليه فإن الله سبحانه وتعالى يحاسب الإنسان على الأمور التي يكون مخيرا فيها ، وعلي الإنسان أن يتحمل مسئولية الاختيار ونتائج التفضيل .

ليس هذا فحسب ، ولكن الفعل الغائي الذي يفعله الإنسان بما قدمت يداه عن رغبة وإدراك في الحياة الدنيا ، يؤدي إلى النتائج المرتبطة بنوعية هذا الفعل سواء كانت نتائج حسنة أو سيئة ، ذلك الفعل الذي يجزى عليه الإنسان جزاء حسنا إذا كان الفعل حسنا ويحاسب عليه حسابا سيئا إذا كان شرا بالمعايير الدينية ، ولهذا فإن المصائب تمثل ذلك النوع الأخير من الأفعال الإنسانية التى تقدمها يد الإنسان شرورا وآثاما وعصيانا لله سبحانه وتعالى ، ويستند هذا الطرح السابق إلى نصوص القرآن الكريم ، ومنها:

١- (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) (النساء / ٦٢) .

٢- (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) (القصص / ٤٧) .

٣- (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) (الشورى / ٣٠ - ٣١) .

الجانب السابع : إن استحالة منع أقدار الابتلاء بالمضار ، لا يمنع الانسان من السعي نحو الوقاية من الأضرار .

يجب أن يدرك الإنسان أن ما يصيبه من ابتلاءات المضار أو المسار قد سبق كتابته عليه في اللوح المحفوظ لحكمة يعلمها الله وتجهلها الإرادة الإنسانية ، ولذا فإن هذه الأقدار المقدرة واقعة لا محالة بما جرت به المقادير الإلهية على بني الإنسان في كل زمان ومكان وحتى يوم الدين ، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة ينبغي ألا تقعد الإنسان عن وقاية نفسه وأهله من ارتكاب الشرور والآثام والمعاصي وغيرها من أنواع التهلكة في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (البقرة /١٩٥) ، (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله أمرا ويفعلون ما يأمرون) (التحريم/٦) .

ليس هذا فحسب ، ولكن على الإنسان أن يدرك استحالة منع وقوع أقدار الابتلاء سواء كانت بالمسار أو المضار ، فما كتب وكان سوف يكون من منافع أو مضار ، فالله سبحانه وتعالى هو النافع الضار ، وإن اجتهاد الناس على خلاف ما جرت المقادير لا يتحقق منه شئ ، فذلك من ضرب المحال ، عن ابن عباس رضى

الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) (أخرجه الترمذي في سننه : ك . صفة القيامة – باب (٥٩) ، ح ٢٥١٦ ، (٤/ ٥٧٦) وقال حسن صحيح .

خامسا :وجدانيات الطبيعة الإنسانية بين ابتلاء السراء وابتلاء الضراء

يحدثنا القرآن الكريم عن أحوال الطبيعة الإنسانية وخصائصها الوجدانية عندما يصاب الإنسان بابتلاء السراء أو يصاب بابتلاء الضراء ، وكيف أن أحوال هذه الطبيعة الإنسانية تختلف بين حالات الفرح ، والسرور ، والأمن ، والطمأنينة ، والدعاء ، والتوكل على الله عند ابتلاء السراء،وحالات اليأس ،والقنوط ، والنكران ، والخوف ، والفزع ، والهلع ، والشرك بالله عند ابتلاء الضراء ، الأمر الذي يمكن توضيحه على النحو التالي :

١- الطبيعة الإنسانية وحالة الفرح والسرور عند ابتلاء السراء ، والشعور باليأس والقنوط عند ابتلاء الضراء

إن بعض الناس إذا نزع الله منهم نعمة من نعمه التي وهبهم إياها لحكمة يعلمها ولم يحافظوا عليها ، يظهرون مظاهر اليأس والكفر والقنوط والشعور بالمهانة في حياتهم اليومية ، حتى ان هذه المظاهر تكاد تكون السلوى لتلك البلوى لدى هؤلاء ، ولو تفضل الله سبحانه وتعالى عليهم بالسراء بعد الضراء التي ألمت بهم ، فإن مظاهر الفرح والفخر والسعادة والسرور لدي هؤلاء الناس تكون هي النتيجة الطبيعية التي يظهرونها ، ويستثنى من ذلك المؤمنون الصابرون الذين يعملون الصالحات ويستغفرون ربهم وعليه يتوكلون وهم المهتدون .

قال تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن)(الفجر / ١٥-١٦) .

وقال تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) (هود /٩-١١) .

وقال تعالى : (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) (الروم / ٣٦) .

٢- الطبيعة الإنسانية وحالة اللجوء إلى الله عند ابتلاء الضراء ، والشرك بالله عند كشف هذه الضراء .

إن بعض الناس عندما يصيبهم ابتلاء الضراء يتجهون إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والابتهال ليرحمهم من عذاب هذه المضار التي ألمت بهم في الحياة الدنيا ، وعندما يستجيب الله سبحانه وتعالى لدعائهم ويكشف السوء والضراء عنهم لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى ، فإن بعض هؤلاء يشركون بالله الذي كشف عنهم الضر وأنعم عليهم بالنعم الكثيرة والخير الوفير ، الأمر الذي يوضح مدى النفاق الذي يخص بعض هؤلاء الناس الذين ينسون النعم التي وهبوا إياها ويشركون بواهب النعم الغني الحميد .

قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) (النحل / ٥٣-٥٤) .

قال تعالى : (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) (الروم / ٣٣) .

قال تعالى : : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) (الإسراء /٦٧) .

٣- الطبيعة الإنسانية وحالة التضرع بالدعاء إلى الله عند ابتلاء الضراء ، ونكران الجميل عند ابتلاء السراء

إن بعض الناس الذين إذا أصابهم ابتلاء الضراء في الحياة الدنيا لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، يدعون ربهم بخالص الدعاء منيبين إليه لأن يكشف عنهم السيئات والمضار التي حلت بهم ، وإذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم برفع الضر وزوال الشر عنهم لحكمة يعلمها ، فإن نكران هذا الكشف الإلهي ونسيان ما كانوا فيه من مضار ، وإسناد وجود النعم إلى أنفسهم ، يمثل خاصية أساسية في الطبيعة الإنسانية لدى بعض هؤلاء الناس ، وكأنهم لم يدعوا الله سبحانه وتعالى وقت إصابتهم بالضراء من قبل ، وهو ما يمثل نكرانا وجحودا وغيا وفتنة لدى هذا الإنسان الناكر للجميل ولإحسان الله إليه .

وقال تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) (الزمر/ ٨)

وقال تعالى : (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) (الزمر / ٤٩) .

وقال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (القصص /٧٧) ،

٤- الطبيعة الإنسانية وحالة البعد عن الله عند ابتلاء السراء ، وكثرة الدعاء إلى الله عند ابتلاء الضراء .

إن بعض الناس يبتعدون عن الطريق المستقيم وينسون الله سبحانه وتعالى واهب النعم إذا أنعم الله عليهم بابتلاء الخير والسراء ، بل أكثر من هذا ، فإن بعض هؤلاء يتناسون أن الله سبحانه وتعالى هو المعطي الوهاب لكل أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى في حياة الإنسان من ناحية ، قال تعالى : : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) (النحل /١٨) ، بل إن هؤلاء الناس الذين يكشف الله سبحانه وتعالى الضر عنهم ، يتنكرون لهذه الرحمة وينكرون نعمة كشف الضر التي أنعم الله عليهم بها من ناحية أخرى .

وقال تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) (فصلت / ٥١) .

وقال تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا ، قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدي سبيلا) (الإسراء /٨٣ –٨٤)

وقال تعالى: (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) (يونس / ١٢) .

٥ ـ الطبيعة الإنسانية وحالة الشعور بالطمأنينة عند ابتلاء السراء ، والخوف عند ابتلاء الضراء .

إن بعض الناس يشعرون بالأمن والسكينة والاطمئنان عندما ينعم الله سبحانه وتعالى عليهم بابتلاء السراء ويرزقهم بالنعم والخير الوفير ، وعندما يصيبهم الله سبحانه وتعالى بابتلاء الضراء يتغير حالهم إلى حالة من الخوف والقلق واليأس والقنوط ، ومن ثم فإن أصحاب هذا الإيمان الضعيف يفقدون الحياة الدنيا ويخسرون الحياة الآخرة ، وعلى هذا فإن هذه الخسارة المزدوجة تمثل النتيجة الطبيعية لهذا الإيمان الهش الضعيف ، لما قدمت أيديهم من أعمال مجافية لمنهج الله سبحانه وتعالى ، وبما حادوا عن جادة الصواب والطريق الإلهي المستقيم .

قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) (الحج / ١١) .

٦ ـ الطبيعة الإنسانية وحالة المنع والبخل عند ابتلاء السراء ، والهلع والفزع عند ابتلاء الضراء .

إن بعض الناس يتصفون – في طبيعتهم الإنسانية – بالهلع والجزع إذا مسهم الله سبحانه وتعالى بابتلاء الشر والعسر والمضار، بدلا من أن يكونوا صابرين مصابرين دافعين للبلاء ، قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) (آل عمران / ١٢٠) ، وبدلا من أن يكون هؤلاء الناس شاكرين حامدين منفقين في سبيل الله في حالات النعم والسراء ، يكونون شديدي المنع والبخل إذا أصابهم ابتلاء الخير واليسر والسراء ، إلا المصلين الذين يداومون على صلاتهم ولا يتركونها في أى وقت من الأوقات ، فهؤلاء المصلون يعصمهم الله سبحانه وتعالى من الوقوع في الزلل والخطايا والخسران ويوفقهم إلى الخير والبر والرضوان .

قال تعـالى : (إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون) (المعارج /١٩-٢٣) .

وقال تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (الفرقان / ٦٧) .

٧- الطبيعة الإنسانية وحالة الحسد في ابتلاء السراء ، والشماتة في ابتلاء الضراء

يتصف بعض الناس – في طبيعتهم الإنسانية – بحالة من الغل والحقد الذى أصاب قلوبهم المريضة ، مخلوطا بالحسد وتمني زوال النعمة عن أولئك الذين تم ابتلاؤهم بالخير والمسار أو غيرها من الحسنات التي تسوء وجوه هؤلاء الحاسدين ، كما يتصف هؤلاء الناس الحاسدون بحالة من الشماتة والفرح عندما يتم ابتلاء البعض بالشر والمضار أو غيرها من السيئات التي تسعد هؤلاء الحاقدين الذين يكرهون رؤية أثر نعمة الله على عباده ، وعلى الإنسان المؤمن أن يتمسك بالصبر وسيلة على أذى هؤلاء الحاقدين الحاسدين .

وقال تعالى : (وان تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط) (آل عمران/١٢٠) .

وقال تعالى: (ان تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) (التوبة /٥٠) .

وقال تعالى : (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (إبراهيم / ١٢)

المحور الثالث
حكمة الابتلاء بالسراء والضراء في ضوء القرآن الكريم

يتناول هذا المحور محاولة الإجابة عن التساؤل الفرعي (الثالث) الذي طرحته قضية الدراسة الحالية ، ويدور حول توضيح الحكمة الكامنة وراء قانون الابتلاء بالسراء أو الضراء في ضوء القرآن الكريم ، وكيف أن الابتلاء بالشر والخير يمكن أن يكون (تصفية) من أجل التمحيص والاصطفاء للنفوس الإنسانية ، وكيف أن الابتلاء يمكن أن يكون (ترقية) للإنسان المؤمن كثير الإحسان قليل العصيان ، الأمر الذي يمكن توضيحه عل النحو التالي :

مقدمة :

قد يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنواع شتى من ابتلاءات السراء وابتلاءات الضراء لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى وقد لا يدركها الإنسان في حينها ، قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة /٢١٦) ، كما أن الإنسان يفرح بالنعمة حين يفيض الله بها عليه ويحزن لما يعتبره نقمة حين يضيق الله عليه رزقه دون أن يدرك غاية الابتلاء في أي من المنح أو المنع ، قال تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) (الفجر /١٥- ١٦)

فالابتلاء كحكمة يمكن أن يكون (تصفية) من أجل التمحيص والاصطفاء وإقامة الحجة على صدق الإيمان من عدمه لدى الإنسان المؤمن ، فالإيمان لا يكون كاملا

إلا بإخلاص النية في القلب وما يتبعها من النزوع إلى الخير سواء تعلق ذلك بالكلم الطيب الذي يصعد إلى الله أو العمل الصالح الذي يرفعه الله ، قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) (البقرة / ٨) ، كما أن الله يبتلي العبد حتى يتبين الصادق في إيمانه من المنافق الكاذب ، قال تعالى (ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (العنكبوت / ٢-٣)

فابتلاء الله سبحانه وتعالى للإنسان بالسراء والضراء في الحياة الدنيا يبين الإنسان المؤمن من الإنسان المنافق ، وعلى سبيل المثال : فهناك مريض أو معوق أو غير ذلك يسأل عن حاله ويقول : لماذا فعل – يفعل – الله بي هذا ؟ ولماذا أنا دون غيري من الناس ؟ فهو من الإعاقة ساخط وناقم ؟ ، وآخر قد يكون أشد مرضا أو إعاقة أو نحو ذلك ، ويردد دائما : اللهم أسألك الرضا بعد القضاء ، ويكون دائم الحمد والشكر لله ، ويصبر على ما يعانيه ويحتسب الأجر والثواب عند الله تعالى ، فهو مع الإعاقة محتسب وصابر ، وشتان ما بين الشخصين من أهل الابتلاء بالضراء .

وعلى هذا فإن الابتلاء كاختبار للقلوب وتمحيص للنفوس فيما آتاها الله سبحانه وتعالى يظهر حقيقة الإنسان وخصائص طبيعته البشرية ، من أى صنف هو ؟ ومن أى معدن يكون ؟ وأي قلب يحمله هذا الإنسان أو ذاك ؟ قال تعالى (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (آل عمران / ١٥٤) ، (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (المائدة / ٤٨) .

كما أن الابتلاء كحكمة يمكن أن يكون (ترقية) للإنسان المؤمن كثير الإحسان قليل العصيان في الحياة الدنيا،وبمعنى آخر قد يبتلى هذا الإنسان أو ذاك بلاء شديدا ، فيصبر عليه صبرا جميلا ويجاهد جهادا عظيما ويحتسب الأجر والثواب عند الله ، فيرفع الله درجته في الجنة إلى الدرجات العلا ، ليكون مع النبيين والصديقين والشهداء ، ولا سيما أن للجنة درجات كما أن للنار دركات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة) (أخرجه البخاري في صحيحه : ك . الجهاد – باب (٤) انظر فتح الباري (٢٧١/١٧) ، ك . التوحيد – باب (وكان عرشه على الماء) (انظر فتح الباري ١٥٩/٢٨) .

ليس هذا فحسب ، ولكن باستقراء بعض آيات القرآن الكريم التي وردت فيها كلمات الابتلاء ، نستنتج العديد من الحكم والفوائد الكامنة في الابتلاء بالشر والخير والتي تعود على الإنسان المبتلي والمجتمع والإنسانية جمعاء ، ما بين محبة الله سبحانه وتعالى للعباد ، وتمحيص للقلوب في علاقتها بالكلم الطيب والعمل الصالح ، ومغفرة ذنوب العباد وتطهير نفوسهم ، وحسن ثواب الآخرة والفوز بنعيم الجنة وغيرها من الفوائد التي اقتضتها الحكمة الإلهية وقد لا تدركها الإرادة الإنسانية ، الأمر الذي يمكن توضيحه فيما يلي :

أولا : الابتلاء ومحبة الله للعباد المؤمنين الصابرين المتوكلين

من أعظم حكم الابتلاء فوز العبد الصابر على البلاء بمحبة الله سبحانه وتعالى وهى أسمى الغايات التي يسعى فيها العبد المؤمن ليحظى بمحبة الله سبحانه وتعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أراد الله بعبده خيرا عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة) (أخرجه الترمذي في سننه : ك . الزهد / باب (٥٦) ح (٢٣٩٦) ، (٥١٩/٤) ،

كما أن النفس الإنسانية تكره البلاء وتأباه ، لكن لو علمت ما في البلاء من نعم وفيرة لتمنت الازدياد والاستكثار من هذا الخير الذي يسكب في قلب المؤمن أمنا وأمانا وإيمانا .

فالابتلاء بالمضار أو البلاء ما هو إلا امتحان يجب دفعه واجتيازه بقوة وتماسك وتحمل وإيمان وتسليم بحكمة الله سبحانه وتعالى فيما جرت به المقادير ، لا باستسلام واستكانة واسترخاء وضعف وقنوط وسخط على القدر الإلهي , ذلك السخط الذي يؤدي بالإنسان الساخط إلى حياة البؤس واليأس والتشاؤم والاكتئاب والشقاء ، قال صلى الله عليه وسلم : (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط) (أخرجه الترمذي في سننه : ك . الزهد / ٥٦ ، (٥١٩/٤) ، وابن ماجة في سننه : ك الفتن – باب الصبر على البلاء (٤٩٣/٢) .

كما أن محبة الله سبحانه وتعالى للعبد المؤمن الصابر على الابتلاء الذي أصابه لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، تعني حب أهل السماوات والأرض لهذا العبد المؤمن الذي صبر على بلاه وشكر مولاه ، فما أعظمها من محبة عندما يحب الحبيب حبيبه ويحظى بحب المحبين من أهل السماوات والأرض ، فقد روى أبو هريرة – رضى الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض) (أخرجه البخاري في صحيحه : ك . بدء الخلق – باب (٦) (فتح الباري ٢٩/١٣) ، ومسلم في صحيحه واللفظ له : ك البر – باب إذا أحب الله عبدا (٤٩٠/٥) .

ويضاف إلى ما سبق أن أصحاب الابتلاء الصابرين عليه والدافعين لآثاره – كالأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاة – يحظون بمحبة الله سبحانه وتعالى ، لأنهم صبروا على الإعاقة وتبعاتها وشكروا وحمدوا دون سخط أو ضجر أو ملل أو قنوط ،

فحققوا التوجيه الإلهي لهم بالصبر الجميل على الابتلاء ، قال تعالى (والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (الحج / ٣٥) ، (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) (لقمان / ١٨) ، فقد تحملوا ابتلاء الإعاقة في صبر وصمت واحتساب ولم تضعفهم الإعاقة ولم يهنوا ولم يحزنوا ، فحظوا بمحبة الله تعالى ورحمته وما أعظمها محبة ورحمة ، قال تعالى : (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)(آل عمران /١٤٦) .

ثانيا : الابتلاء وتمحيص الكلم الطيب والعمل الصالح

تعد الحياة الدنيا – كلها – ابتلاء من الله سبحانه وتعالى لبني الإنسان فالله سبحانه وتعالى لا يبتلي ليعاقب ويعذب ، وإنما يبتلي ليصطفي ويهذب ، كما أن الله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة لاختبار الناس أيهم أحسن عملا في الحياة الدنيا ليفوز الذي أحسن عملا بثواب الحياة الآخرة ، قال تعالى: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) (تبارك / ٢) ، (ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) (محمد / ٣١) ، (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (آل عمران / ١٨٦) .

ليس هذا فحسب ، ولكن زيادة في الابتلاء لدى بني الإنسان في الحياة الدنيا ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى كل ما سخره على الأرض زينة وتفاخر لاختبار الناس فيها ، وليبين لهم أن الحياة الدنيا مزرعة من أجل الحياة الآخرة التي هي خير وأبقى

باعتبارها دار القرار قال تعالى : (وإن الآخرة هي دار القرار) (غافر / ٣٩) ، وعلى الإنسان أن يتزود بخير الزاد وأن يتقي الله في كل شيء فكرا وقولا وعملا ، قال تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) (الكهف / ٧) ، (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب) (البقرة / ١٩٧) (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما أتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم)، (الأنعام / ١٦٥) .

ثالثا : الابتلاء ومغفرة ذنوب العباد وتطهير نفوسهم

تعد مغفرة الذنوب وتكفير السيئات وتطهير النفوس بمشيئة الله تعالى من الحكم العظيمة للابتلاء ، فالنفس لا تزكو ولا تصلح حتى تمحص بالابتلاء بالسراء أو الضراء ، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها خطاياه) (أخرجه البخاري في صحيحه : ك . المرضى باب (١) (فتح الباري ٢١٥/٢١) .

كما أن الصبر على الابتلاء – ومنه ابتلاء الإعاقة – يسهم في مغفرة الذنوب وتطهير النفوس بمشيئة الله، فالابتلاء بالضراء قد يكون نعمة وفضلا من الله تعالى ، حيث يبتلي العبد المؤمن بابتلاءات الضراء ، فإن صبر على البلاء ، محا الله عنه السيئات بمشيئته ، وفي هذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله به سيئاته ، وحطت عنه ذنوبه ، كما تحط الشجرة ورقها) (أخرجه البخاري في صحيحه : ك . المرضى – باب (٣) (فتح الباري ٢٢٢/٢١) .

ليس هذا فحسب ، ولكن نزول البلاء بالإنسان المؤمن الصابر سواء أكان في نفسه أم ولده أم ماله أم غير ذلك ، يمكن أن يطهر قلبه من الآثام التي فعلها بغير علم ويغسله من الخطايا التي تكون قد لحقت به في الحياة الدنيا ، لينتقل إلى الرفيق الأعلى وقد تطهر من خطاياه وسقطت عنه ذنوبه وصفت نفسه وسمت روحه بمشيئة الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى ربه , وما عليه مثقال ذرة من خطيئة)(أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٨٧/٢) ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه ، وولده ، وماله ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة) (أخرجه الترمذي في سننه : ك. الزهد – باب (٥٦) ح (٢٣٩٩) ، (٤/ ٥٢٠) وقال حسن صحيح .

رابعا : الابتلاء وحسن ثواب الآخرة والفوز بدخول الجنة

إن التحليل لبعض آيات القرآن الكريم يظهر بجلاء أن ابتلاء الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين وصبرهم على ما أصابهم من البلاء ، يحمل لهم كل بشائر الخير في الحياة الدنيا وحسن الثواب في الحياة الآخرة ، قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (آل عمران / ١٤٢) ، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) (البقرة /٢١٤) ، كما أن المبتلين الصابرين على الابتلاء يجزل الله لهم العطاء الممدود بغير حساب أو حدود (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (النحل / ١٢٦) ، (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر / ١٠) .

ليس هذا فحسب ، ولكن عاقبة المؤمنين المبتلين الصابرين على الابتلاء بالضر في الحياة الدنيا هي حسن الثواب والفوز بجنة النعيم في الحياة الآخرة ، لما أبلوه

من بلاء حسن ورباطة جأش وحسن يقين وصبر جميل في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) (آل عمران / ١٤٨) ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ولد العبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله سبحانه وتعالى : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد)(أخرجه الترمذي في سننه : ك . الجنائز – باب (٣٦) ، ح (١١٢١) , (٣٤١/٣) وقال حسن .

هذا ، بالإضافة إلى أن الابتلاء بالمضار والصبر عليه رضا واحتسابا يمهد طريق العبد المؤمن إلى دخول الجنة بمشيئة الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي قال الله تعالى (إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه – يريد عينيه – ثم صبر ، عوضته عنهما الجنة) (أخرجه البخاري في صحيحه : ك. المرضى – باب فضل من ذهب بصره (فتح الباري ٢٢٧/٢١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى (ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة) (أخرجه البخاري في صحيحه : ك . الرقاق – باب (٦) (فتح الباري ١٩/٢٤) , تلك الجنة التي أعدت مستقرا ومقاما لأصحابها الصابرين المؤمنين المحتسبين (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) (الفرقان/٢٤) .

ويضاف إلى ذلك ، أن الابتلاء بالضراء والصبر الجميل عليه يمهد الطريق أمام المؤمنين الصابرين للفوز بجنة المأوى ، فالإعاقة كابتلاء – والصبر عليها – ودفع بلائها قدر المستطاع تمثل أحد العوامل الأساسية للفوز بنعيم الجنة (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) (الإنسان / ١٢) ، (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) (الفرقان / ٧٥، ٧٦) ، فما أحوجنا إلى الصبر الجميل على الابتلاء بالإعاقة والرضا بقضاء الله وقدره فينا وفي أولادنا ، لنفوز

بالحظ العظيم في الحياة الآخرة ، قال تعالى ، (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (فصلت / ٤١) .

الجزاء بين الثواب العقاب وموقع الإعاقة منه

تجدر الإشارة هنا ، أن نفرق بين مفهوم الجزاء الإلهي عندما يكون (ثوابا) ومفهوم الجزاء عندما يكون (عقابا) في الحياة الدنيا والآخرة ، وذلك حسب نوعية النوايا الخيرة أو الشريرة ، والكلمة الطيبة أو الخبيثة ، والأعمال الصالحة أو الطالحة التي يقوم بها الإنسان في الحياة الدنيا ، مصداقا لقوله تعالى (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) (الأعراف / ١٦٣) ، (ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) (النجم / ٣١) ، (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) (آل عمران / ١٤٥)

فالطفل الذي يولد معوقا أو تلحق به الإعاقة بعد الولادة لسبب أو لآخر هو طفل مبتلى ، ولهذا فإن الإعاقة التي يحملها هذا الطفل المعوق ليست عقوبة له أو لأهله المبتلين في الحياة الدنيا كما قد يظن البعض خطأ ، قال تعالى : (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (النساء /١٩) ، ولكنها ابتلاء يتطلب الصبر الجميل والرضا والاحتساب حتى ينال المؤمنون الصابرون ثواب الحياة الدنيا (بما صبروا) خيرا كثيرا ، وحسن ثواب الآخرة (بما صبروا) جنة وحريرا ، الأمر الذي يتطلب التفريق بين مفهومي الابتلاء بالسراء أو الابتلاء بالضراء ، والجزاء بمعنى إنزال (العقوبة) أو الجزاء بمعنى المكافأة والثواب ،وذلك على النحو التالي :

١- العوامل والأسباب

أ- يتطلب (الابتلاء) الوقوف على الأسباب والمسببات والنظر في عواقب الأمور والتأمل والتدبر في السنن الكونية ، خاصة أن المحنة كابتلاء قد تحدث لأسباب لا ذنب للإنسان فيها ولحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، أو لأسباب يجهلها هذا الإنسان في حينها ويعلمها الله تعالى ، الأمر الذي يتطلب زيادة شحنة الصبر والمثابرة لدى الإنسان المؤمن الذي تم ابتلاؤه ، وقد تحدث المحنة أيضا بسبب أخطاء العمل الإنساني والانحراف عن السلوك الصحيح ، الأمر الذي يتطلب – إضافة إلى ما سبق – الصبر الجميل وتعديل الخطأ وعدم الوقوع فيه مرة ثانية (فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ، فزواج الأقارب وتناول بعض الأدوية غير المناسبة أثناء فترة الحمل قد يسبب الإعاقة لدى الأطفال دون ذنب جنوه أو إثم اقترفوه .

ب- بينما (العقوبة) تنتج عن الانحراف عن (الأسباب الصحيحة) التي دعانا إليها الدين الحنيف والبعد عن الطريق المستقيم ، مصداقا لقوله تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) (طه /١٢٤) ، (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) (الحشر / ١٩) ، أى أن القرب من الإيمان والاستقامة واتباع الصراط المستقيم قد يكونوا سببا في الابتلاء ، قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) (الأنعام / ١٥٣) ، أما ما يصيب الصالحين فهو ابتلاء وليس عقوبة ، وغرضه منفعتهم بتحصيلهم ثواب الصابرين ، وكلما اشتد الإيمان وزادت التقوى لدى المؤمن اشتد الابتلاء لديه ، ولذلك كان الأنبياء أشد الناس ابتلاء ثم الأمثل فالأمثل .

كما أن البعد عن الإيمان واتباع الهوى وخطوات الشيطان وانتشار الظلم قد يكون سببا في العقوبة أيضا ، ولهذا كلما زاد الانحراف وارتكاب المعاصي وتفشت

الفاحشة لدى الإنسان أو المجتمع زادت العقوبة له ، قال تعالى : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (النور / ١٩) ، (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) (البقرة / ٢٦٨) ، (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) (الأنفال / ٢٥) .

٢- العمل والنتيجة

يمثل (الابتلاء) اختبارا للإنسان بالمنحة السراء التي تتطلب الشكر الجزيل لله أو بالمحنة الضراء التي تتطلب الصبر الجميل عليها ، وعلى الإنسان أن يبذل قصارى جهده للنجاح في هذا الاختبار عن طريق الإيمان والتقوى والرضا والاحتساب والعمل الصالح والكلم الطيب ، بينما الفشل في هذا الاختبار (بعدم الشكر في المنحة) و(عدم الصبر في المحنة) ، قد يؤدي إلى العقوبة جزاء بما كسب ، ولذلك فإن (الابتلاء) يمثل المقدمة والعمل بينما (العقوبة) تمثل النهاية والنتيجة ، قال تعالى : (إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) (الأنعام / ١٢٠) .

يمثل (الابتلاء) عملية دخول هذا الامتحان من أجل اجتيازه بالشكل الذي يحقق النتيجة المرجوة والخاتمة التي يرضاها الله تعالى ، بينما (العقوبة) تمثل الجزاء الذي قد يقع على العباد في الدنيا أو الآخرة نتيجة الفشل في الامتحان والخروج عن طاعة الله تعالى ، قال تعالى (فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) (فصلت / ٢٧-٢٨) .

٣- العلامات والإشارات

قد يكون (الابتلاء) علامة من علامات حب الله سبحانه وتعالى وإشارات اطمئنان للعبد المؤمن الصابر ، وما أنبله من حب لا يقارن عندما يفوز الإنسان المخلوق بحب الله الخالق سبحانه وتعالى ، فإذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن شكر اصطفاه ، قال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين .شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) (النحل / ١٢٠ ، ١٢١) . فالإنسان المؤمن مصاب ومبتلى في الحياة الدنيا في كل ما هو فيه (منحا) من أجل الشكر الجزيل على الخير واليسر والسراء (ومحنا) من أجل الصبر الجميل على الشر والعسر والضراء ، كما أن الابتلاء تهذيب للنفوس وغفران للذنوب وتطهير للقلوب ، والله يحب المتطهرين الذين شرحت صدورهم للإسلام وصفت قلوبهم للإيمان وسمت أرواحهم للقاء الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)(التوبة / ١٠٨) .

بينما (العقوبة) قد تكون علامة وإشارة إلى غضب الله سبحانه وتعالى وعدم رضاه عن أعمال الإنسان العاصي في الحياة الدنيا ، قال الله تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)(طه / ١٢٤) ، (يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) (يونس / ١٠٨) ،(من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (فصلت /٤٦)

ولهذا فإن العقوبة – والجزاء عليها – هي نتيجة للخروج عن طاعة الله كفرا وظلما وعدوانا ، قال الله تعالى (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) (الأنعام / ١٥٧) ، (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور) (سبأ / ١٧) ، (لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق (الرعد / ٣٤) ، (كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر) (القلم / ٣٣) .

٤- الإمامة والتمكين

يعد (الابتلاء) طريقا للإمامة والتمكين للعباد المؤمنين في الحياة الدنيا وتبوئهم مكان الريادة والصدارة بين الأمم ، ولا سيما في حالة النجاح في اختبار المنحة أو المحنة واجتيازه بالشكل الذي يرضي الله سبحانه وتعالى نية وقولا وفعلا عن إيمان عميق وصبر جميل على الضراء وشكر جزيل على السراء ، كما أن هذا التمكين يلقي بمسئولية الإعمار والإصلاح في الأرض على المؤمنين الصادقين صلاة وزكاة ومعروفا وإحسانا ، عبادة الله وعمارة للأرض وإصلاحا لها عملا وأملا ، قال الله تعالى : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) (الحج /٤١) ، (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) (يوسف /٥٦)

ليس هذا فحسب ، ولكن (العقوبة) قد تمثل حرمانا لبعض الناس من هذه الإمامة أو التمكين لهم في الأرض في الحياة الدنيا ، نتيجة الفساد والإفساد في الأرض وظلم الآخرين وغيرها من أنواع الذنوب التي يرتكبها بعض الناس بما سعت نفوسهم وقدمت أيديهم ، قال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في

الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) (الأنعام / ٦) .

كما أن بعض الناس الذين ينجحون في اجتياز الابتلاء بإيمان ويقين في الحياة الدنيا يحظون بالإمامة الموعودة لهم بمشيئة الله تعالى ، بينما الذين يفشلون في الابتلاء قد يحرمون من شرف الإمامة وتبعاتها في الحياة الدنيا ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام جعل للناس إماما ؛ لأنه نجح في كل ما ابتلي به ، بينما لم يمكن منها الظالمون الذين يكفرون بنعمة الله ، قال تعالى : (وإذ إبتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (البقرة / ١٢٤) ، (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة عين واجعلنا للمتقين إماما) (الفرقان / ٧٤) .

٥-التوحيد والتشتت

يهدف (الابتلاء) في الحياة الدنيا إلى تجميع شمل الأمة وتوحيد كلمتها وإعلاء شأنها وتقوية الروابط بين أفرادها ، حين يتمسكون بأوامر الله سبحانه وتعالى في ابتلاءات المنحة السراء أو المحنة الضراء ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتقون الله حق تقاته في جميع مجالات الحياة الإنسانية ، قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) (آل عمرن / ١٠٣) (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) (الأعراف / ٩٦) ، (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) (الطلاق / ٢)

وقد تكون (العقوبة) في الحياة الدنيا ، نتيجة تشتت الأمة التي تبتعد عن المنهج الإلهي وتفرق كلمتها وزيادة العداوة والبغضاء بين أفرادها رغم كثرتهم التي لا تعدوا – في هذه الحالة – سوى أن تكون كغثاء السيل ، فتذهب ريحهم وتنزع مهابتهم من قلوب أعدائهم ويتفرقون شيعا وأحزابا ويفقدون أسباب القوة الحضارية ويصابون بعوامل الوهن الثقافي ، فتطمع فيهم الأمم الأخرى وتتداعى عليهم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ويظلون كذلك من الفرقة والتفريق حتى يوم الحساب ، قال تعالى (فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) (المائدة /١٤)

٦- العلاج والتصحيح

يحتاج (الابتلاء) بالإعاقة أو غيرها في الحياة الدنيا إلى الاستقامة والتمسك بحبل الله تعالى وإعمال الصبر والرضا والاحتساب على تبعات هذا الابتلاء ، والتضرع إلى الله تعالى لكشف الضر ورفع الهم وإزالة الغم ، فالله تعالى هو الكاشف للضر المستجيب للدعوات الذي وسعت رحمته تعالى كل شئ ، قال الله تعالى : (قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ) (الأعراف/١٥٦) ، (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا) (غافر/٧) ، فرب دعوة مقبولة من قلب إنسان مؤمن أشعث أغبر يقسم على الله فيبره ، فتتغير بهذه الدعوة أحوال العباد بمشيئة الله تعالى ، قال الله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) (يونس / ١٠٧) .

أما (العقوبة) ، فتحتاج – بالإضافة إلى ما سبق – إلى التوبة النصوح والاستغفار من أجل تصحيح المسار والبعد كليا عن أفعال الشرور والمضار والعزم على عدم العودة إلى المعاصي والخطايا وارتكاب الذنوب ، والبعد عن كل ما يغضب

الله سبحانه وتعالى غافر الذنب ، قابل التوب شديد العقاب ذي الطول ، فالله تعالى يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك به ويقبل التوابين الأوابين من المتضرعين إليه في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) (النساء / ٤٨) ، (وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) (الجن / ١٦) .

وهكذا ، يتضح أن إصابة الطفل بالإعاقة لحكمة إلهية سابقة تجهلها الإرادة الإنسانية ، ليست عقابا له أو انتقاما من أسرته على شر فعلوه أو إثم اقترفوه في الحياة الدنيا كما قد يعتقد البعض خطأ ، ولكن هذه الإعاقة ابتلاء إلهي لأسر الأطفال المعوقين تمحيصا للصدور وتطهيرا للقلوب وتكفيرا للذنوب ، الأمر الذى يتطلب منهم الرضا والقبول لتقدير العزيز الحكيم ودفع بلاء الإعاقة قدر المستطاع والصبر الجميل على تبعاتها الحياتية ، مع أجل توفير مناخ أسري واجتماعي يشعر الطفل بالحب والأمن والقبول لكونه يحظى بشرف الإنسانية وكرامتها .

ليس هذا فحسب ، ولكن أسر الأطفال المعوقين الراضين بقضاء الله وقدره فيما جرت به المقادير ، الصابرة على تبعات الإعاقة ، الدافعة لبلائها قدر المستطاع دون كلل أو ملل أو تكاسل أو تواكل ، تحظى بمحبة الله سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا وتجزى بحسن ثواب الآخرة ودخول الجنة ، قال تعالى : (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) (آل عمران / ١٤٨) ، (إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) (المؤمنون / ١١١) ، (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر / ١٠) .

وتأسيسا على ما سبق ، فعلى أسر الأطفال المعوقين أن يدركوا تمام الإدراك أن متاع الدنيا قليل باعتبارها مرحلة من مراحل حياة الخلود في الآخرة ، وان الله سبحانه وتعالى يؤخر لهم أفضل الجزاء في الآخرة باعتبارها دار القرار، قال تعالى :

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (الحديد/ ٢٠) ، (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) (النساء / ٧٧) ، (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) (غافر / ٣٩) .

ليس هذا فحسب ، ولكن على أسر الأطفال المعوقين أن يدركوا إدراكا يقينيا ، أن إعاقة الطفل في الحياة الدنيا لا تمثل النهاية الإنسانية المحتومة ، فالحياة الآخرة تمثل النهاية الحقيقية لرحلة الإنسان عبر الحياة الدنيا ، قال تعالى : (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) (الإسراء / ٢١) ، فالإعاقة الحقيقية للإنسان تكون في قلوب لا تدرك السنن الإلهية ، وفى أعين لا ترى نعمة الله ، وفى آذان تصم عن الاستماع إلى الحق ، قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف / ١٧٩) ، وتكون النتيجة المحتومة للإنسان دخول النار بما كسبت يداه في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) (آل عمران /١٨٥) .

وأخيرا فإن صبر أسر الأطفال المعوقين على الإعاقة صبرا جميلا ودفع بلائها قدر المستطاع واحتساب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى ، فإن الجنة الموعودة هي الملتقى لهؤلاء الأسر وأطفالهم المبتلين ، قال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (الأعراف/ ٤٢) ، (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (الرعد / ٢٤) ، (فاصبر صبرا جميلا إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) (المعارج / ٥)،(وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) (الإنسان / ١٢) .

المحور الرابع

موقع الإعاقة من قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم

يتناول هذا المحور محاولة الإجابة عن التساؤل الفرعي (الرابع) الذي طرحته قضية الدراسة الحالية ، ويدور حول توضيح موقع الإعاقة من مبادئ قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، وكيف أن الإعاقة ليست عقابا أو إيذاء لأسر الأطفال المعوقين على شر فعلوه أو إثم اقترفوه ، وكيف أن الإعاقة تخرج عن دائرة الجزاء العقابي لبني الإنسان في الحياة الدنيا ، بل إن الإعاقة والصبر عليها ودفع البلاء بقدر الإمكان واحتساب الثواب عند الله ، يمكن أن يكون طريقا موثوقا إلى الفوز بنعيم الجنة في الحياة الآخرة ، الأمر الذي يمكن توضيحه على النحو التالي :

قانون الابتلاء فى ضوء القران الكريم

يتكون قانون الابتلاء من جملة المبادئ الأساسية التي تكون في مجموعها فلسفة وحكمة الابتلاء وأنواعه السارة أو الضارة وكيفية التعامل معه شكرا أو صبرا في الحياة الدنيا وعاقبته في الحياة الآخرة ، تلك المبادئ التي أكدها الإسلام في مصدريه الأساسيين وهما : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، الأمر الذي يمكن توضيحه على النحو التالي :

المبدأ الأول :

أن الابتلاء سنة إلهية ماضية باقية في الخلق إلى يوم الدين ، وأن الحياة كلها فتنة واختبار من بدايتها حتى نهايتها ، للتمييز بين بني الإنسان في حسن العمل وصلاحه والإخلاص فيه لله تعالى .

إن المدقق في آيات القرآن الكريم فيما يتعلق بقضية الابتلاء وعلاقتها بالإنسان في الحياة الدنيا ، يجد أن هذا الابتلاء قد ارتبط بخلق السماوات والأرض وكأنهما خلقتا من أجل اختبار الإنسان في حسن العمل وصلاحه ، امتحانا له وتمحيصا لما في القلوب وكشفا

لمعادن الطبيعة الإنسانية في جودتها أو رداءتها ، قال تعالى : (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (آل عمران / ١٥٤) وإلى أي مدى سيقابل الإنسان وجه ربه الكريم بقلب سليم – باعتباره المعتمد الاساسى لقبول العبد – يوم القيامة ، قال تعالى: (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتي الله بقلب سليم) (الشعراء /٨٨ ، ٨٩)

ليس هذا فحسب ، ولكن قضية الابتلاء من الأهمية العظيمة بمكان في هذا الكون العظيم ، لدرجة أن هذا الابتلاء قد ارتبط ارتباطا وثيقا بخلق السماوات والأرض وكذا خلق الموت والحياة ، وكأنهما خلقا من أجل اختبار الإنسان في حسن العمل وصلاحه وارتباط هذا العمل بكافة مناحي الحياة الإنسانية ، فالأرض قد زينت لفتنة الإنسان واختبار أحواله فيها وفرز طبيعته الإنسانية ، ومعرفة مدى شكره على السراء ومدى صبره على الضراء ، ومن ثم حسابه وجزاؤه خيرا بخير وشرا بشرفي يوم الحساب وفق تقدير العزيز الحكيم .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى:

١- قوله تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (هود/٧) .

٢ – وقوله تعالي: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) (الملك/٢)

٣- وقوله تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) (الكهف / ٧) .

٤- وقوله تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) (محمد/ ٣١) .

المبدأ الثاني :

أن الابتلاء بالخير والسراء أو بالشر والضراء أقدار إلهية ، قد كتبت على بني الإنسان في اللوح المحفوظ في الملأ الأعلى ، قبل أن تخلق الأرض ومن عليها .

إن ابتلاء الإنسان بالخير والسراء أو بالشر والضراء ليس وليد الحياة الدنيا ، ولكن قد كتبه الله سبحانه وتعالى وجرت به المقادير في صحف العلا قبل أن يخلق الإنسان ويسكن الأرض من أجل تعميرها وإصلاحها ، ولذلك فما يصيب الإنسان من ابتلاءات قد كتب عليه سابقا ، ومن كتبت عليه أقدار تلقاها ، لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ولا تدركها الإرادة الإنسانية ، فالابتلاءات أقدار إلهية خالصة لا دخل للإنسان في إنشائها ، قال تعالى : (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)(البقرة / ١٠٥)

ليس هذا فحسب ، ولكن تقدير الابتلاء بالسراء أو الضراء لبني الإنسان في الحياة الدنيا ، إنما هو من مقادير الغيب التي اختص الله سبحانه وتعالى بعلمها ، فلا يعلم الإنسان أو الجان من سيحمل ابتلاء الإعاقة من بنى الإنسان ، ولا متى ولا كيف تحدث الإعاقة لبعض الأطفال دون البعض في الحياة الدنيا ؟ ، وليس في مقدورهما منع وقوع الإعاقة التي سبق تقريرها من قبل العزيز الحكيم ، قال تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) (الجن / ٢٦) , (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) (سبأ / ١٤) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) (الحديد / ٢٢) .

٢- وقوله تعالى: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (التوبة / ٥١) .

٣- وقوله تعالى : (الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا) (الفرقان / ٢) .

٤- وقوله تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) (الشورى /٢٧) .

المبدأ الثالث :

أن ابتلاء بني الإنسان في الحياة الدنيا ليس نوعا واحدا ، ولكنه قد يكون بالخير والمسار أحيانا ، وقد يكون بالشر والمضار أحيانا أخرى .

تشير بعض آيات القرآن الكريم إلى أن الابتلاء الذي يصاب به الإنسان ليس نوعا واحدا ولكنه نوعان ، ابتلاء الشر والضراء أو ابتلاء الخير والسراء قال تعالى :(ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء / ٣٥) ، وقد تكون هذه الثنائية في الابتلاء على ما جرت به سنة الله في خلق كل الأشياء على هيئة أزواج ، قال تعالى : (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) (الذاريات / ٤٩) ، ولذلك على الإنسان المؤمن أن يوطن نفسه على أن الحياة الدنيا مجموعة من الابتلاءات المتوالية دون أن تستقر على حال واحد ، فسبحان مغير الأحوال ، يغير ولا يتغير بيد الأمر كله ، قال تعالى : (بل لله الأمر جميعا) (الرعد / ٣١) .

ليس هذا فحسب ، ولكن جرت سنة الله سبحانه وتعالى في الحياة والخلق أن تكون كلها فتنة وابتلاء ، وأن تكون هذه الإبتلاءات موزعة على بني الإنسان بين الأضداد والتي

يعرف بعضها بالآخر ، بين ابتلاء الشر والخير ، واليسر والعسر ، والسراء والضراء ، والحسنات والسيئات وغيرها ، هذه الأضداد من الابتلاءات ترتبط بتقرير مدى جودة الطبيعة الإنسانية أو رداءتها وحسن أعمال الإنسان في الحياة الدنيا من عدمه ، ومن ثم حسابه وجزاؤه عليها عند الرجوع إلى الله يوم القيامة ، قال تعالى : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (العنكبوت / ٢) ، (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) (المؤمنون / ١١٥) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قوله تعالى: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء/ ٣٥)

٢- وقوله تعالى : (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) (الأعراف/ ٩٥) .

٣- وقوله تعالى : (وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) (الأعراف / ١٦٨)

٤- وقوله تعالى: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (الجاثية / ٢١).

المبدأ الرابع :

أن ابتلاء بني الإنسان بابتلاءات الخير والنعم في الحياة الدنيا ، يتطلب من الإنسان الشكر الجزيل لله تعالى على ابتلاء المسار ، مع مواصلة النجاح في هذا الابتلاء والمحافظة على استمرار هذه النعم .

لقد وهب الله سبحانه وتعالى كل النعم وأنواع الخير للإنسان بلا غرض أو عوض وبقدر معلوم تقدره المشيئة الإلهية ، فسبحان المعطي الوهاب الغني الحميد الذي لا تنفد خزائنه، قال تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) (النحل / ٩٦) ، (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (الحجر / ٢١) ، وهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى إنما هي من أنواع الرزق التي يمنحها الله سبحانه وتعالى ابتلاء لبني الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، قال تعالى :(إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(آل عمران/٣٧) ، (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) (العنكبوت / ٦٢) .

ليس هذا فحسب ، ولكن ابتلاءات الخير والسراء تتطلب من الإنسان الشكر الجزيل لله سبحانه وتعالى على هذه النعم التي وهبها الله إياه ، والشكر هنا لا ينحصر في معناه اللفظي في ترديد كلمة (شكرا) ولكنه شكر القلب والجوارح معا ، فيتطلب نية صادقة وذكرا صادقا وعملا صالحا ودواماً على كل هذا من أجل المحافظة على دوام هذه النعم التي لا يغيرها الله سبحانه وتعالى إلا إذا غير الإنسان في نفسه ، قال تعالى : (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(الأنفال/٥٣) ، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) (الرعد / ١١) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قوله تعالى : (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) (آل عمران / ١٤٤) .

٢-وقوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد) (لقمان / ١٢) .

٣- وقوله تعالى : قال تعالى : (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) (النحل / ١١٤)

٤-وقوله تعالى : (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) (النمل / ٤٠) .

المبدأ الخامس :

أن ابتلاء بني الإنسان بابتلاءات الشر والنقم في الحياة الدنيا ، يتطلب من الإنسان الصبر الجميل على ابتلاء المضار ، مع مواصلة النجاح في دفع هذا البلاء بقدر المستطاع دون تواكل أو إهمال .

إن الوقاية من الإعاقة (قبل حدوثها) باتخاذ كافة وسائل الحيطة والحذر ، لمنع الوقوع في براثن هذه الإعاقة طبقا لقانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، لا يعني الانتظار لحين وقوع الإعاقة ثم التصرف السريع تجاهها ، ولكنه يعني استباق هذا التفكير سبق السيف العزل ، وذلك عبر برامج (التدخل في وقت مبكر) بمحاولة اكتشاف عواملها وأسبابها قبل بداية الزواج وأثناء الحمل والولادة وما بعدها في مرحلة الطفولة المبكرة ،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف : (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) .

ليس هذا فحسب ، ولكن تقبل الإعاقة (بعد) حدوثها بالرضا والاحتساب والتسليم والامتثال لما جرت به المقادير الإلهية طبقا لقانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، لا يعني الركون إلى واقع الإعاقة والاستكانة لتأثيراتها السلبية تحت بند أن (الحذر لا يمنع من قدر) ، (واللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) ، ولكنه يعني اتخاذ كل السبل المتاحة والوسائل الممكنة لدفع بلاء الإعاقة قدر المستطاع للحد من تأثيراتها بلطف الله فيها ، والبحث في كل اتجاه وصوب لعلاجها عبر برامج (التدخل المبكر) العلاجية والتأهيلية المناسبة لنوعية الإعاقة سواء كانت جسمية (حسية) أو عقلية أو اجتماعية أو وجدانية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف (تداوو فإن الله قد خلق لكل داء دواء) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١-قوله تعالى : (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (البقرة / ١٩٥) .

٢- وقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) (النساء / ٧١) .

٣- وقوله تعالى:(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (النور/ ٦٣) .

٤-وقوله تعالى: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (التوبة / ١٢٢) .

المبدأ السادس :

أن استبدال الإنسان للكفر والجحود ونكران الجميل ، بالشكر الجزيل على ابتلاء الخير والمسار في الحياة الدنيا ، يعرضه لعقاب الله سبحانه وتعالى

إن قيام الإنسان بنكران الجميل وعدم تقديم الشكر الجزيل لله سبحانه وتعالى عند ابتلاء الخير والسراء له عاقبته السيئة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فالكفر بالنعم التي وهبها الله سبحانه وتعالى لبعض بني الإنسان لن يمر ولن يترك سدى ، فالله سبحانه وتعالى يحاسب من ينكرون نعمه وخيراته في الحياة الدنيا بأنواع من الحساب الحياتي كابتلاءات الجوع والخوف والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، علاوة على عذاب الكفار الجاحدين المنكرين لأنعم الله في الحياة الآخرة ، قال تعالى:(فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) (الزمر / ٤٩) ، (ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين) (التوبة/ ٤٩) .

ليس هذا فحسب ، ولكن عجبا لأمر الإنسان الذي يرزقه الله سبحانه وتعالى نعما كثيرة وفيرة في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) (النحل / ١٨) ، ومع ذلك ينكرها الإنسان ويجحد بها ولا يشكر المعطي الوهاب وربما تأخذه العزة بالإثم فينكر هذه الهبات وتلك العطايا ، قال تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (النحل /١١٢)

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قوله تعالى : (ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب)(البقرة / ٢١١)

٢- قوله تعالى (يعرفون نعمت من الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) (النحل / ٨٣) .

٣- قوله تعالى : (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) (المزمل / ١١-١٣) .

٤ - قوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور) (هود/١٠)

المبدأ السابع :

أن استبدال الإنسان للجزع والسخط والقنوط ، بالصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع عند ابتلاء الشر والمضار في الحياة الدنيا ، يعرضه لعقاب الله سبحانه وتعالى

إن قيام الإنسان بالسخط على الأقدار والجزع واليأس والقنوط على ابتلاء الشر والضراء له عاقبته السيئة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، حتى أن بعضا من بني الإنسان قد يتعدى على الحدود الواجبة بين العبد وربه ولا يتأدب فيها ، خاصة عندما يبتلى بالضراء ، فيتطاول العبد – لخطأ في تفسيره لحكمة الابتلاء – ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد أهانه وحاش لله صاحب العزة جميعا أن يرضى بإهانة العباد الذين كرمهم كبني آدميين ، قال تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (الصافات / ١٨٠) ، (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (المنافقون / ٨) .

ليس هذا فحسب ، ولكن لنقص في إدراك العباد لحكمة المشيئة الإلهية في ابتلاء الضراء في الحياة الدنيا فإن بعضا من بني الإنسان يغتر ويتكبر ويعرض ويبعد عن الطريق المستقيم في حالة ابتلاء الخير والسراء الذي قد لا يدوم طويلا ، ويصيبه اليأس والبؤس والقنوط في حالة ابتلاء الشر والضراء الذي قد يكشفه الله في لحظة ، وفي كلتا الحالتين فإن حكم المشيئة الإلهية ماض في العباد وفقا لما جرت به المقادير ، ولن يعود على مثل هذا الإنسان اليائس البائس القانط إلا الخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الحياة الآخرة ، قال تعالى : (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) (البقرة / ٨٥) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قوله تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ،كلا بل لا تكرمون اليتيم ،ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما) (الفجر /١٥-٢٠) .

٢- وقوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد) (فصلت / ٥١-٥٢)

٣- وقوله تعالى : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) (الإسراء /٦٧) .

٤- وقوله تعالى : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) (الأنعام / ٦٣- ٦٤) .

المبدأ الثامن

أن ابتلاء الله سبحانه و تعالى للإنسان بأي نوع من ابتلاءات الخير والمسار في الحياة الدنيا ، لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى ، المعطي .

يجب على الإنسان المؤمن أن يدرك إدراكا يقينيا أن الله سبحانه وتعالى هو المعطي الوهاب لكل الخيرات والنعم ، وإذا أعطى سبحانه بعض العباد من فضله رزقا ورحمة فلا يستطيع أي إنسان أن يمنع أو يقطع وصول هذا الفضل إلى الإنسان المختار لها أو يمسكه عنه ، فالله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ويقدر على إيصال الرزق للمرزوقين من الناس حتى الكفار منهم الذين لا يشكرون ، ولذلك فإن من يردد عبارة أن فلانا (قد قطع رزقه بيده) لا يعي حقيقة الابتلاء بالخير والسراء في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) (النمل / ٧٣) .

ليس هذا فحسب ، ولكن رزق الله سبحانه وتعالى الذي وهبه لبعض الناس وميزهم به عن البعض الآخر قد قدر كابتلاء بالخير والمسار في السماوات العلا ، قال تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (الذاريات / ٢٢) ، كما أن الله سبحانه وتعالى يزيد في الرزق لما يشاء من العباد بما يشاء من فضله ، قال تعالى (ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) (النور / ٣٨) ، فالله هو الغني وجميع الناس فقراء

إليه ، قال تعالى : (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) (فاطر / ١٥) ، (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)(الذاريات / ٥٧) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١-قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) (فاطر / ٢) .

٢-وقوله تعالى : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) (الزمر /٣٨) .

٣- وقول الله تعالى : (قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) (الأحزاب /١٧) .

٤- وقول الله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) (الأنعام / ١٢٥) .

المبدأ التاسع :

أن ابتلاء الله سبحانه وتعالى للإنسان بأى نوع من ابتلاءات الشر والمضار في الحياة الدنيا ، لا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

إن ابتلاء الله سبحانه وتعالى لبعض من بني الإنسان بالشر والمضار في الحياة الدنيا ، ليس معناه إحداث الضرر للإنسان ولكن معناه اختبار هذا الإنسان لمعرفة مدى صبره على البلاء ودفعه له بكافة السبل والوسائل الممكنة ، لأن الله سبحانه تعالى بيده كل الخير ، فالله سبحانه وتعالى عندما ينزع الملك ممن يشاء ففيه خير

للإنسان ، وعندما يذل من يشاء ففيه خير للإنسان أيضا ، قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير) (آل عمران / ٢٦) ، ومع ذلك فإذا أصيب الإنسان بضراء لا يكشفها عنه إلا الله سبحانه وتعالى ، رافع الغم ، كاشف الهم ، الكبير المتعال ، قال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) (الإسراء / ٥٦) .

ليس هذا فحسب ، ولكن رغم أن حقيقة وحدانية المشيئة الإلهية في كشف الضر عن بني الإنسان ظاهرة للعيان ولا يختلف عليها اثنان ، إلا أن بعض الناس يتناسون هذه الحقيقة ويلجأون – دون التوكل على الله – إلى الحكام والرؤساء والأمراء وغيرهم من الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا وقد يخلعون عليهم صفات تأليهية من أجل مناصب زائلة أو مكافآت لا يستحقونها أو غير ذلك من متاع الدنيا القليل ، رغم أن هؤلاء الناس المؤلهين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قال تعالى : (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) (الرعد / ١٦) ، (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) (المائدة /٧٦) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قول الله تعالى : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلى هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) (يونس / ١٠٧) .

٢- وقول الله تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون) (النمل / ٦٢) .

٣- وقول الله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتينا أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) (الأنبياء / ٨٣ ، ٨٤) .

٤- وقول الله تعالى :(قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا) (الفتح / ١١) .

المبدأ العاشر :

أن ابتلاء الخير والسراء قد يكون شرا للإنسان ، وأن ابتلاء الشر والضراء قد يكون خيرا لهذا الإنسان وفقا لحكمة المشيئة الإلهية ، والله يعلم وأكثر الناس لا يعلمون.

يقف الإنسان مندهشا مذهولا أمام الحقيقة القرآنية التي تقرر أن حب الإنسان للخير الظاهر عيانه قد يكون خطأ لأن ما ظنه خيراً في الحقيقة شر لـه ، وأن كـره الإنسان للشر الماثل أمامه قد يكون خطأ أيضا لأن ما ظنه شراً هو في الحقيقة خير له ، وذلك لارتباط هذا الحب والكره بجهل الإنسان بالحقيقة الكاملة وقصـور علمـه عن مسيرة الإنسان ، وعن علم الغيب الذي اختص به الله تعـالى ، ولـذلك كانـت الحكمة الشهيرة (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) ، فلا يطلع على غيب الله أحدا ، قال تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) (الجن / ٢٦) .

ليس هذا فحسب ، ولكن على الرغم من أن الإنسان قد جبل على حب الخيـر والمسار وكره الشر والمضار ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل مع العسر يسـرا ومع الضيق فرجا ، حتى أن بعض ابتلاءات الشر التي يتراءى لبعض النـاس أنهـا مضار أصابتهم قد تحمل لهم كل أنواع الخير الكثير والرزق الوفير على عكـس مـا يتوقعه الإنسان نفسه ، دون أن يعتبر هؤلاء من هذه الابتلاءات التـي تخشـع لهـا القلوب وتقشعر لها الأبدان ، وأن بعض ابتلاءات الخير التي يتراءى لبعض النـاس

أنها مسار أسعدتهم قد تحمل لهم كل صنوف الشر الكثير والضرر الكبير على عكس ما يتوقعه الإنسان نفسه ، دون أن يعتبر هؤلاء من هذه الابتلاءات التي تتحير لها العقول وتعتبر لها الألباب ، إنها أقدار المشيئة الإلهية التي تجهلها الإرادة الإنسانية ، فهل من معتبر يا أولي الألباب ؟ .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة/٢١٦)) .

٢-قوله تعالى : (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (النساء / ١٩) .

٣- قول الله تعالى : (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون) (يونس / ١١) .

٤- وقول الله تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما يعملون خبير) (آل عمران / ١٨٠)

المبدأ الحادى عشر :

أن عاقبة ابتلاء الإنسان باليسر والمسار مع الشكر الجزيل والمداومة عليه ، يعود على هذا الانسان المؤمن (العبد الشاكر) بمزيد من الخير والنعم في الحياة الدنيا وحسن ثواب الآخرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

إن قيام الإنسان المؤمن بتقديم كل صنوف الشكر الجزيل لله سبحانه وتعالى على ابتلاء الخير واليسر والمسار الذي رزق به في الحياة الدنيا ، يعود بالفائدة المضاعفة على هذا الإنسان الشاكر لأنعم الله (مرتين) في الحياة الدنيا والآخرة ،

فأما بالنسبة للفائدة في الحياة الدنيا فتكمن فيما وهبه الله للإنسان من الخير والنعمة والسراء لينعم بها وينفق منها ، قال تعالى : (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) (آل عمران /١٣٤) ، وأما بالنسبة للفائدة في الحياة الآخرة فتكمن في خير الجزاء لكل من شكر ، قال تعالى (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) (الرعد/٢٢) .

ليس هذا فحسب ، ولكن مداومة العبد الشاكر على تقديم الشكر الجزيل لله سبحانه وتعالى خاصة مع ابتلاء الخير والسراء في الحياة الدنيا ، يمكن أن يؤدى هذا السلوك الإيماني – بمشيئة الله – إلى استمرار تمتع الشاكرين بالنعم التي وهبهم الله سبحانه وتعالى إياها ، ومن هنا كانت حكمة الرزق الوفير بغير حساب لمزيد من الابتلاء بالسراء ، ولذلك فإن استمرار ابتلاء الخير يمثل اختبارا مستمرا لبني الإنسان في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) (النور / ٣٨) ، (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) (آل عمران /٣٧)

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قول الله تعالى : (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنه يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) (النمل / ٤٠) .

٢- قول الله تعالى : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) (إبراهيم / ٧) .

٣-قول الله تعالى : (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه) (الأحقاف / ١٥)

٤- قول الله تعالى : (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) (النحل /١١٤) .

المبدأ الثاني عشر :

أن عاقبة ابتلاء الإنسان بالعسر والمضار مع الصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع ، يعود على هذا الإنسان المؤمن (العبد الصابر) بمزيد من الثواب والحسنات في الحياة الدنيا مع دخول الجنة في الآخرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى

إن قيام الإنسان المؤمن بتقديم كل صنوف الصبر الجميل على ابتلاء الشر والعسر والضراء ودفع بلائها قدر المستطاع ، يعود بالبشرى وحسن الجزاء على هذا الإنسان الصابر على المضار في الدنيا والآخرة ، فالصبر على ابتلاء الضراء في الحياة الدنيا يرتبط ارتباطا وثيقا بعظم الأجر وحسن الثواب في الحياة الآخرة ، قال تعالى : (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما) (الفرقان / ٧٥) (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر / ١٠) ، (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) (القصص /٥٤) ،

ليس هذا فحسب ، ولكن عاقبة الصبر الجميل على ابتلاء الشر والضراء ودفع البلاء قدر المستطاع في الحياة الدنيا كما في حالة الإعاقة ، ترتبط بالمدد الإلهي والخير الإنساني من ناحية ، قال تعالى :(واصبروا إن الله مع الصابرين)(الأنفال / ٤٦) ، (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (النحل / ١٢٦) ، كما يرتبط بالفوز والحظ العظيم ودخول جنة النعيم في الحياة الآخرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى :

(وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (فصلت / ٣٥) ، (إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) (المؤمنون /١١١) ، (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (الرعد /٢٤) .

ويستند توثيق هذا المبدأ في القرآن الكريم إلى :

١- قول الله تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) (البقرة / ١٥٥-١٥٦) .

٢- قول الله تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل / ٩٦) .

٣- قول الله تعالى : (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) (الإنسان / ١٢-١٣) .

٤- قول الله تعالى : (وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (الحج/ ٣٤-٣٥) .

المحور الخامس
متطلبات التعامل التربوي مع ابتلاء الإعاقة في ضوء القرآن الكريم

يتناول هذا المحور محاولة الإجابة عن السؤال الأخير الذي طرحته قضية الدراسة الحالية ، ويدور حول تحديد متطلبات التعامل التربوي مع ابتلاء الإعاقة في ضوء القرآن الكريم ، عبر تقديم تصور مقترح يتضمن نموذجا إنسانيا لدعم ومساندة أسر هؤلاء الأطفال للوقاية من الإعاقة قبل حدوثها من ناحية ، ولمواجهة تأثيرات الإعاقة في حالة حدوثها بالرضا والتسليم والصبر عليها ودفع بلائها قدر المستطاع دون إهمال أو تواكل من ناحية أخرى ، وذلك على النحو التالي:

أولا : أهداف التصور التربوي المقترح لمواجهة ابتلاء الإعاقة في ضوء القرآن الكريم :

تتعدد الأهداف التي يسعى التصور التربوي المقترح إلى تحقيقها لدى أسر الأطفال المعوقين لمواجهة الإعاقة في ضوء القرآن الكريم ، لتشمل :

١- الكشف عن حقيقة فضل التوكل على الله سبحانه وتعالى في علاقته بابتلاء الإعاقة

فالتوكل على الله سبحانه وتعالى كما يقول أحمد عبد السلام أبو الفضل يعني : صدق اعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى في كل أمور الإنسان دون اعتماد على الأسباب وحدها مع الأخذ بها ، فيعيش القلب مع الرب بلا علاقة – أى بلا تعلق – بغيره وتسترسل الجوارح مع الله على ما يريد ، حتى يقع منه اليأس مما في أيدي الناس ، بل مما في يد نفسه ، فيكون أوثق بما في يد الله سبحانه وتعالى منه بما في يد نفسه ، قال تعالى: (قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا) (الفتح ١١) (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) (الأعراف / ٨٨ ١) . (وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله. وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(المجادلة / ١٠)

ليس هذا فحسب ، ولكن بعد الأخذ بالأسباب ، فإن التوكل على الله يعني أن يترك الإنسان أمره كله لله ، يفعل به ما يشاء ويقلبه كيفما يشاء ويستقبل الأقدار بالرضى والتسليم للواحد القهار ، فلا يبالي إن أقبلت عليه الدنيا أم أدبرت عنه ، استقر به الحال في الفقر أو في الغنى ، في الصحة أو في المرض ، في السراء أو في الضراء ، في المنع أو في العطاء ، في الإعاقة أو في الشفاء ، فما دام الكل من عند الله سبحانه وتعالى ، فيرضى الإنسان بما يرضاه له الله ولا ينازعه في قدره وقضاه ، قال تعالى : (إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) (يوسف / ٦٧) ، (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا) (غافر / ٤٤ -٤٥) .

كما أن التوكل على الله والرضا والتسليم لجلاله ، وترديد الآية (حسبنا الله ونعم الوكيل) (آل عمران/ ١٧٣) بنية صادقة وقلب خاشع راكع لله سبحانه وتعالى في وقت الأزمات والشدائد والمحن ، يسهم في دفع السوء عن قائلها في محنة الضراء سواء كان الضر إعاقة أو نكبة أو فاجعة أو مصيبة أو غيرها ، قال تعالى : (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) (الزمر / ٣٨) ، (وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله) (التوبة / ٥٩) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق / ٣) ، (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) (آل عمران١٧٣ ، ١٧٤) .

هذا ويجب أن يعلم الإنسان المؤمن أن قول (حسبنا الله ونعم الوكيل) قولا لفظيا دون دفع البلاء والأخذ بالعوامل والأسباب ، ليس كافيا وإن كان مهما كمقدمة لشحذ

الهمم واستلهام القوة من الله سبحانه وتعالى ، ولكن المطلوب هو الأخذ بالأسباب ودفع البلاء قدر المستطاع وما يرتبط بها من سبل الكشف في وقت مبكر عن الإعاقة أو برامج التدخل المبكر للحد من الإعاقة وتحجيم آثارها في أضيق نطاق وغيرها من أسباب الوقاية والعلاج ، فالله سبحانه وتعالى لا يرضى بالتقصير والتواكل والإهمال ولكن يحث على الكياسة والمبادأة واليقظة والحذر والإصرار دون كلل أو ملل على بذل أقصى الطاقات لمواجهة الإعاقة ودفع بلائها قدر المستطاع .

٢- تخليص أو (تخلية) بعض أفراد المجتمع من الاتجاهات السلبية والاعتقادات الخاطئة تجاه ابتلاء الإعاقة .

إن تخليص بعض أسر الأطفال المعوقين من أوهام الإعاقة ومعتقداتها السلبية تعديلا للاتجاهات السلبية نحوها أو تخلصا من الاعتقادات الشعبية الخاطئة تجاهها يسهم في بناء أساس متين من الوعي التربوي بطبيعة الإعاقة وخصائصها وكيفية التعامل معها وفقا لمبادئ قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، لأنه بدون الوعي الديني والتربوي والثقافي الصحيح تجاه الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين ، فإن هناك احتمالات لزيادة حجم المأساة واتساع دائرة اليأس والقنوط لدى هذه الأسر من ناحية ، وذهاب الجهود الموجهة للحد من تأثيرات الإعاقة أدراج الرياح لتصبح هباء منثورا دون أن يكون لها أدنى جدوى من ناحية أخرى .

ليس هذا فحسب ، ولكن بقاء الاتجاهات السلبية وسيادة المعتقدات الخاطئة عن الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين ، يسهم في زيادة الضغوط النفسية والمجتمعية الواقعة علي هذه الأسر المبتلاة من جهة ، وزيادة مستوى التشاؤم والاكتئاب والهم والغم والحزن الذي يكسو حياتها اليومية من جهة ثانية ، ويخفض الروح المعنوية للوالدين ويؤدي إلى اعتلال صحتهم النفسية من ناحية ثالثة ، مما يزيد من تراكم الخبرات الأبوية السيئة تجاه الإعاقة وحالات التندر المكتوم لدى أسر الأطفال المعوقين ، وما لهذا من تأثيرات نفسية مدمرة على أساليب التعامل مع الأطفال المعوقين إساءة وقهرا ورفضا وإهمالا .

٣- مساعدة أفراد المجتمع على اكتساب أو (تحليتهم) بمبادئ قانون الابتلاء الإلهي وعلاقته بالإعاقة في ضوء القرآن الكريم .

إن استبدال الرضا والقبول والاحتساب عند حدوث الإعاقة بالسخط والاكتئاب والتشاؤم لدى أسر الأطفال المعوقين ، والوقوف على حكمة ومبادئ قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، يسهم في إكساب هذه الأسر اتجاهات إيجابية ومشاعر وجدانية حميمة تجاه الأطفال المعوقين فكرا ووعيا وممارسة ، الأمر الذى يقلل من الخبرات الأبوية السلبية لدى الآباء والأمهات تجاه أطفالهم المعوقين في مواقف الحياة الاجتماعية المختلفة ، وما لهذا التحول في اتجاهات ومعتقدات الأسر من تأثيرات إيجابية على تعديل صورة مفهوم الذات لدى هؤلاء الأطفال تجاه أنفسهم وتجاه آبائهم وتجاه الآخرين .

ليس هذا فحسب ، ولكن توعية أسر الأطفال المعوقين بمبادئ قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، يمكن أن يسهم في تأكيد مفهوم المواساة لدى الآباء والأمهات وغيرهم من أفراد المجتمع ، والذي يتمثل في تصور أنفسهم في مكان هؤلاء الأطفال المعوقين للحكم لهم أو عليهم ، مشفوعا – هذا التصور– بمرجعية قرآنية عن حكمة المشيئة الإلهية في حدوث الابتلاء بالسراء والضراء ، وما لهذا التعامل الإنساني والتكافل الاجتماعي من أهمية في نقل مشكلة الطفل المعوق من داخله إلى خارجه في المجتمع المحيط ، ومن ثم فإن مثل هذا التعامل الإيجابي مع الإعاقة وفقا لهذه الرؤية الحضارية يمكن أن يكون أكثر جدوى وتفاؤلا Optimism في الحد من تأثيرات الإعاقة ومضارها لدى الأطفال المعوقين .

٤- إيجاد ثقافة مجتمعية جديدة تقوم على أنسنة العمل التربوي مع الأطفال المعوقين في الأسرة والمدرسة والمجتمع في ضوء القرآن الكريم .

إن بناء ثقافة مجتمعية إنسانية جديدة تجاه الإعاقة والأطفال المعوقين وفقا لقانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم – يسهم في تركيز بؤرة الاهتمام بقضايا الأطفال المعوقين لأن تكون ضمن أولويات الرعاية والتنمية التربوية الرسمية والأهلية معا ، ومن ثم تخطيط البرامج الوقائية والعلاجية والتأهيلية الموجهة لهؤلاء

الأطفال بصورة علمية تكاملية ، بدلا من تحويل قضايا هؤلاء الأطفال المبتلين إلى القطاع الأهلي فقط رعاية وتنمية وإنفاقا ، وما لهذا من تأثيرات سلبية على الوضع الاجتماعي للأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاة على سلم التقدير المجتمعي وعلى هذا فنحن في حاجة ماسة إلى بناء ثقافة مجتمعية تحتضن الأطفال المعوقين وأسرهم المبتلاة بعيدا عن المعاني السلبية للشفقة والإحسان .

ليس هذا فحسب ، ولكن تغيير النظرة المجتمعية السلبية التي يعاني فيها الأطفال المعوقون وأسرهم المبتلاة عبر التعرض لكثير من الإساءة الوجدانية والإهمال المجتمعي إلى رؤية إنسانية حضارية يحظى فيها هؤلاء الأطفال وأسرهم بحقوقهم الإنسانية في حياة طبيعية دون تمييز طبقي أو جسدي أو عنصري أو تعميم بعض العجز أو القصور في بعض الأعضاء أو الحواس على باقي شخصية الطفل المعوق ، الأمر الذي يسهم في أنسنة العمل التربوي مع هؤلاء الأطفال في الأسرة والمدرسة والمجتمع ، ترقية واحتراما ومواساة وتقديرا لذواتهم الإنسانية في إطار ثقافة المجتمع .

ثانيا : ركائز التصور التربوى المقترح للتعامل مع ابتلاء الإعاقة في ضوء القرآن الكريم :

تتعدد الركائز التي يقوم عليها التصور التربوي المقترح للتعامل مع الإعاقة وفقا لمبادئ قانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، لتشمل الركائز التالية :

١- أن الابتلاء سنة إلهية ماضية باقية في الخلق إلى يوم الدين ، وأن الحياة كلها فتنة واختبار من بدايتها حتى نهايتها ، للتمييز بين بني الإنسان في حسن العمل وصلاحه والإخلاص فيه لله تعالى .

٢- أن الابتلاء أقدار إلهية ، قد كتبت على بني الإنسان في اللوح المحفوظ في الملأ الأعلى ، قبل أن تخلق الأرض ومن عليها .

٣- أن ابتلاء بني الإنسان في الحياة الدنيا ، قد يكون بالخير والمسار أحيانا ، وقد يكون بالشر والمضار أحيانا أخرى .

٤- أن ابتلاء بنى الإنسان بابتلاءات الخير والنعم في الحياة الدنيا ، يتطلب من الإنسان الشكر الجزيل لله تعالى ، مع مواصلة النجاح في هذا الابتلاء والمحافظة على استمرار هذه النعم .

٥- أن ابتلاء بني الإنسان بابتلاءات الشر والنقم في الحياة الدنيا ، يتطلب من الإنسان الصبر الجميل ، مع مواصلة النجاح في دفع هذا البلاء بقدر المستطاع دون تواكل أو إهمال .

٦- أن استبدال الإنسان للكفر والجحود ونكران الجميل ، بالشكر الجزيل على ابتلاء الخير والمسار في الحياة الدنيا ، يعرضه لعقوبة من الله تعالى جزاء نكرانه للنعم .

٧-أن استبدال الإنسان للجزع والسخط والقنوط ، بالصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع عند ابتلاء الشر والمضار في الحياة الدنيا ، يعرضه للعقوبة من الله تعالى جزاء سخطه .

٨- أن ابتلاء الله سبحانه و تعالى للإنسان بأي نوع من ابتلاءات الخير والمسار في الحياة الدنيا ، لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى .

٩- أن ابتلاء الله سبحانه وتعالى للإنسان بأي نوع من ابتلاء الشر والمضار في الحياة الدنيا ، لا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

١٠- أن ابتلاء الخير والسراء قد يكون شرا للإنسان ، وان ابتلاء الشر والضراء قد يكون خيرا لهذا الإنسان وفقا لحكمة المشيئة الإلهية ، والله يعلم وأكثر الناس لا يعلمون.

١١- أن عاقبة ابتلاء الإنسان باليسر والمسار مع الشكر الجزيل والمداومة عليه ، يعود على هذا الإنسان المؤمن (العبد الشاكر) بمزيد من الخير والنعم في الحياة الدنيا وحسن ثواب الآخرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

١٢- إن عاقبة ابتلاء الإنسان بالعسر والمضار مع الصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع يعود على هذا الإنسان المؤمن (العبد الصابر) بمزيد من الثواب والحسنات في الحياة الدنيا مع دخول الجنة في الآخرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

ثالثا : متطلبات تحقيق التصور المقترح للتعامل مع ابتلاء الإعاقة في ضوء القرآن الكريم .

لكي تتحقق أهداف التصور التربوي المقترح للتعامل مع الإعاقة وفقا لقانون الابتلاء في ضوء القرآن الكريم ، فإن الأمر يتطلب توفير عدد من المتطلبات الفكرية والوجدانية والنزوعية لدى أسر الأطفال المعوقين خاصة والمجتمع عامة ، ومن أهمها :

١- الإيمان العميق بأقدار الله سبحانه وتعالى وحكمته في الابتلاء بالسراء والضراء .

إن الإعاقة التي تصيب بعض الأطفال دون غيرهم تمثل أقدارا إلهية مكتوبة قبل أن تخلق الأرض ومن عليها من بني الإنسان ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فتلك أقدار الله التي لا اعتراض عليها ولكن يسأل اللطف فيها ، وإن هذه الأقدار - كابتلاء الإعاقة - لن تصيب إلا من كتبها الله له أو عليه في إطار قضية التسيير الإلهي ، قال تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (التوبة / ٥١) ، ومن ثم فإن إيمان الصدور وخشوع القلوب بما كتب في صحف العلا وبما جرت به المقادير في الملأ الأعلى يمثل مطلبا أساسيا للتعامل التربوي الجيد مع قضية الإعاقة لدى أسر الأطفال المعوقين .

ليس هذا فحسب ، ولكن الإيمان العميق بأقدار الله سبحانه وتعالى فيما جرت به المقادير بابتلاء الضراء يجب أن يرافقه ويوازيه إيمان عميق باستلهام مدد القوة على الصبر من الله سبحانه وتعالى،وعدم الضعف أو الاستكانة في مواجهة الإعاقة ، فالله سبحانه وتعالى يكون مع الصابرين على ابتلاء الضراء الدافعين لبلائه ، قال

تعالى : (واصبروا إن الله مع الصابرين) (الأنفال / ٤٦) ، (وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) (آل عمران / ١٤٦) ، كما أن عاقبة الصبر هي الخير للصابرين على الضراء ، قال تعالى : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (النحل /١٢٦) ، (وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) (النساء / ٢٥)

٢- الأخذ بالعوامل والأسباب التي تقي الإنسان الضرر وتجنبه حدوث الإعاقة

إن التعامل الواعي مع قضية الإعاقة يتوقف على معرفة العوامل والأسباب المسهمة في الوقاية من حدوث الإعاقة ، بداية من مرحلة اختيار الزوج والكشف المبكر على الزوجين قبل تكوين الأسرة ، ورعاية الأم الحامل وتوفير عوامل الصحة الجسمية والنفسية لها وغير ذلك قبل وأثناء وبعد الولادة ، وتجنب العوامل البيئية والغذائية التي قد تدفع الطفل إلى الوقوع في الضرر وحدوث الإعاقة في الأسرة أو المدرسة أو المجتمع ، فالوقاية من حدوث الإعاقة قبل حدوثها تمثل السلوك الحضاري المطلوب الذي لا تقارن نتائجه بدفع بلاء هذه الإعاقة حال حدوثها لعلاجها قال تعالى (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) (النساء / ٩) .

ليس هذا فحسب ، ولكن على الناس أن يعملوا على أن تكون ثقافة الوقاية من الإعاقة ثقافة حياة يتعاطونها يوميا ، ولهذا يجب أن يتجهوا إلى الاعتماد على النوع الأساسي من الوقاية من الإعاقة وهي الوقاية الأولية قبل الوقاية الثانوية ، ذلك لأن الوقاية الأولية ترتبط بمرحلة (ما قبل) حدوث الإعاقة بينما الوقاية الثانوية ترتبط بمرحلة (ما بعد حدوث الإعاقة) ، كما أن الوقاية الأولية من الإعاقة تشمل الوقاية في مرحلة ما قبل الزواج ، والوقاية أثناء الحمل ، والوقاية أثناء الميلاد ، بينما الوقاية الثانوية تشمل عمليات تدخل مبكر بعد الولادة وخلال مرحلة الطفولة المبكرة

وما بعدها ، وذلك باكتشاف الإعاقة وتشخيصها وفرزها وتصنيفها ووضع البرامج العلاجية والتأهيلية المناسبة لنوعيتها .

٣- الرضا والقبول والاحتساب والتسليم لله سبحانه وتعالى عند حدوث ابتلاء الإعاقة

إن الإيمان العميق بما جرت به المقادير الإلهية في الملأ الأعلى من تقدير الابتلاءات بالسراء أو الضراء ، وأن ما يصيب الإنسان لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما قدر للإنسان سوف يكون، وأن ما قدر في السماء من أقدار إلهية لا تمحوها أيادي البشر ، الأمر الذي يؤكد للإنسان المؤمن بما لا يدع مجالا للشك أن كل شيء بيد الله سبحانه وتعالى إليه ترجع الأمور قال تعالى : (وإلى الله ترجع الأمور) (البقرة /٢١٠) ، (قل إن الأمر كله لله) (آل عمران / ١٥٤) ، (ألا له الخلق والأمر) (الأعراف / ٥٤) ، (بل لله الأمر جميعا) (الرعد / ٣١) ، ولذلك فإن على الإنسان إدراك أن أخذ الاحتياطات اللازمة للوقاية من الإعاقة لا يمنع حدوثها إذا كتبت له أو عليه في الملأ الأعلى ، ومع ذلك فإن الواجب الشرعي يلزم الإنسان أن يأخذ التحسب المستقبلي طريقا له في الحياة الدنيا ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) (الحشر / ١٨) .

ليس هذا فحسب ، ولكن إذا كان الرضا شجرة تنبت وتنمو على قاعدة التسليم لله سبحانه وتعالى ، فإن على الإنسان المؤمن أن يتقبل ما قسمه الله له بنفس هادئة مهدية ، ويتقبل ما يحدث له بنفس مسلمة لله وراضية بقضائه وقدره حال حدوث الإعاقة ، فالإنسان مهما بلغ من قوة وعلم وتكنولوجيا لا يستطيع أن يتحاشى وقوع ما جرت به المقادير وكتب في اللوح المحفوظ ، وأن سعي الإنسان سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى بما شاء الله سبحانه وتعالى ، ولهذا فعلى الإنسان الامتثال لحكمة العزيز الحكيم حتى ينال الرحمة والهداية ، قال تعالى : (وبشر الصابرين . الذين

إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (البقرة / ١٥٥ –١٥٧) .

٤- دفع ضراء الإعاقة عن الطفل المعوق قدر المستطاع دون تواكل أو إهمال أو تقصير

إن لأسر الأطفال المعوقين ومعلميهم والقائمين عليهم أدوارا تربوية متعددة يمكن أن يقوموا بها في حالة حدوث الإعاقة لدى الطفل ، ومن هذه الأدوار التربوية المنوطة بهذه الأسر ، ومن يقومون برعاية وتنمية قدرات هؤلاء الأطفال أولي الضرر دفع بلاء الإعاقة قدر المستطاع دون تواكل أو إهمال أو تقصير أسري أو مدرسي أو مجتمعي ، سواء تعلق ذلك (بالتدخل في وقت مبكر) لاكتشاف بوادر الإعاقة قبل الزواج أو أثناء الحمل والميلاد أو في الطفولة المبكرة عبر الطرق الطبية والعلمية المعدة لذلك ، أو تعلق ذلك (بالتدخل المبكر) للحد من تفاقم الإعاقة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه عبر البرامج التربوية والنفسية والاجتماعية والتأهيلية والطبية المناسبة لنوعية الإعاقة التي يحملها الطفل المعوق .

ليس هذا فحسب ، ولكن الطفل المعوق أمانة غالية وجوهرة نفيسة عند والديه وأهله وذويه ومجتمعه ، فقد حمل الإعاقة دون إرادة منه أو قصد من والديه لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى ولا تدركها الإرادة الإنسانية ، فإن حظي هذا الطفل المعوق بالاهتمام التربوي والطبي الواعي والتدخل – في الوقت – المبكر ، كحق من حقوق التلقي الواجبة على مجتمع الكبار ، كان الخير له ولوالديه ومربيه والقائمين عليه في الحياة الدنيا والآخرة ، وإن أهمل الطفل المعوق ولم يجد من يدفع عنه بلاء الإعاقة قدر المستطاع كحق من حقوقه الإنسانية فإن الإعاقة قد تتمكن منه وتفترسه افتراسا تضعف من إمكانات كيانه الشخصي وتأتي على البقية الباقية لديه ، ويكون الوزر في رقبة والديه ومربيه والقائمين عليه بما فيهم رعاة المجتمع ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

٥- القيام بأعمال الصبر الجميل على ابتلاء الإعاقة في ضوء القرآن الكريم

إن ربط محنة الابتلاء بالصبر لدى الإنسان له دلالاته التربوية والنفسية في القرآن الكريم،قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) (محمد/٣١) ، ومن هنا كانت الدعوة دائما إلى التحلي بالصبر الجميل مع ابتلاء البأساء والضراء ، قال تعالى (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة / ١٧٧) ، ولهذا كان الصبر صبران ، صبر على حدوث الإعاقة وتحمل تكاليفها المتواصلة من ناحية ، قال تعالى (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) (لقمان / ١٧) ، (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) (الطور / ٤٨) ، وصبر على إيذاء الناس وإساءتهم الوجدانية للطفل المعوق وأسرته المبتلاة من ناحية أخرى ، قال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (إبراهيم/١٢)

ليس هذا فحسب ، ولكن الصبر على الإعاقة لا يعني الحزن والاستسلام والتواكل ووضع الأيدي على الخدود ، ولكنه يعني الإيمان بالقدر والرضا بالقضاء والاحتساب عند الله والقوة والتحمل والتماسك ودفع البلاء قدر المستطاع ، وعند ذلك فإن وعد الله لا يخلفه أبدا للصابرين المحتسبين المتوكلين عليه ، فأجر الصبر على ضراء الإعاقة ودفع البلاء برضا وقبول واحتساب عظيم ، قال تعالى (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل / ٩٦) ، (إنما يوفى الله الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر / ١٠) ، (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (الرعد / ٢٤) ، (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) (الإنسان / ١٢) .

٦- التأكيد على أن والدي الطفل المعوق وأخوته هم الظهير القوي المساند له مدى الحياة

تعد أسرة الطفل المعوق بما فيها من الوالدين والأخوة الظهير القوي المساند وخط الدفاع الأول عن حقوق الطفل المعوق ، فقوة إيمان الأسرة بحكمة الابتلاء الإلهي واحتضانها لطفلها المعوق دون حماية زائدة يعوض هذا الطفل عما فقده من عجز لبعض أعضائه أو قصور في بعض حواسه ويضاعف من كفاءة المتبقي لديه ، فالأسرة القوية المتماسكة الصابرة المحتسبة تمثل قوة وحصنا وحضنا وأمانا لطفلها المعوق ، كما أن وجود مثل هذه الأسرة القوية في إيمانها تسهم في تهوين تأثيرات الإعاقة على طفلها المعوق من أجل أن يعيش حياته في حالة سلام ، مهما كان حجم الضغوط النفسية الواقعة عليها من قبل بعض أفراد المجتمع الجاهلين بحكمة ابتلاء الإعاقة ، قال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (الفرقان / ٦٣) .

ليس هذا فحسب ، ولكن على أسر الأطفال المعوقين باعتبارها الحصن الحصين لطفلها المعوق أن تستمد من الله سبحانه وتعالى المدد والعون على استخراج لطائف المنح من وسط لفائف المحن ، وأن ترتاد معاني الأمل والرجاء بعيدا عن هموم الألم والهجاء ، وذلك بالصبر الجميل على ابتلاء الإعاقة ودفع بلائها قدر المستطاع من ناحية ، والصبر على ما يقوله الذين يجهلون حكمة الابتلاء بالإعاقة من ناحية أخرى قال تعالى : (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) (النحل / ١٢٧) ، (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا) (المزمل / ١٠ ، ١١) .

٧- الإيمان العميق بأن الدعاء المستجاب هو خير وسيلة لكشف ضراء الابتلاء بالإعاقة .

لقد ارتبط كشف ابتلاء الضر بالتضرع في الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى الذي اختص ذاته العلية بالاستجابة لهذا الدعاء ، قال تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) (غافر / ٦٠) ، (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) (الأنعام / ١٧) (يونس / ١٠٧) ، وإذا كان الأمر كذلك فإن التضرع إلى الله سبحانه وتعالى يكشف البأساء والضراء التي تحل بذوي البلاء كما أخبرنا بذلك رب العزة جل وعلا ، قال تعالى (فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) (الأنعام / ٤٢) ، (إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) (الأعراف / ٩٤) .

ليس هذا فحسب ، ولكن اجتهاد المؤمن الصابر في الدعاء والإخلاص فيه تضرعا وابتهالا لله سبحانه وتعالى برفع الضر وكشف البلاء الذي أصابه في ولده أو ماله أو أهله أو غير ذلك فإن المولى الكريم سبحانه وتعالى يحقق وعده في استجابة الدعاء بكشف الضر عن الإنسان الذي صبر على المضار ، واحتسب الأجر والثواب ، وساهم في دفع البلاء قدر المستطاع ، قال تعالى : (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) (غافر / ٥٥) ، ولنا في سيدنا أيوب عليه السلام المثل والعبرة ، قال تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) (الأنبياء / ٨٤) .

وفي ختام الدراسة الحالية ، فإن الباحث يتوجه إلى أسر الأطفال المعوقين ليقول لهم بكل أدب واحترام وتقدير :

يا أهل الطفل المعوق ، صبرا ويقينا ، لا تيأسوا من رحمة الله سبحانه وتعالى فإن موعدكم الجنة بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) (الزمر / ٥٣) ، فالله سبحانه وتعالى قد اصطفاكم وفضلكم على العالمين ليشرفكم بابتلاء الإعاقة لدى طفلكم المبتلى ، فالاختيار من الله لهذا الطفل بحمل الإعاقة أقدار قد كتبت سابقا وقدرت تقديرا ، ويجب أن تنجحوا في هذا الاختبار الصعب ، فالموقف لا يحتمل الفشل بل يتطلب النجاح في الاختبار من أجل الفوز بالجنة في الحياة الآخرة ، قال الله سبحانه وتعالى (إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) (المؤمنون /١١١)

ويا أهل الطفل المعوق ، صبرا واحتسابا ، فإن إعاقة الطفل المولود بها أو التي لحقت به بعد ذلك ، تمثل ابتلاء محنة يتطلب الصبر الجميل والنجاح فيه إيمانا ويقينا وتمكينا ، ولا تمثل عقوبة له أو شرا لكم في الحياة الدنيا كما قد يتصور البعض وفقا لاعتقادات خاطئة ، فالإنسان قاصر عن إدراك مصيره النهائي وما إذا كان هذا العمل أو ذاك خيرا له أو شرا ، قال الله تعالى (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (النساء / ١٩) ، (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (البقرة / ٢١٦) .

ويا أهل الطفل المعوق ، صبرا وتحملا ، لا تهنوا ولا تحزنوا لأن موعدكم الجنة بما صبرتم وقدمتم من العناء والتضحية بغير حدود من ناحية ، قال الله تعالى (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) (الإنسان / ١٢) (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (فصلت /٥٣) ، ولأن الله تعالى اصطفاكم من بين العالمين

ليشرفكم بابتلاء الإعاقة ويرفع منزلتكم وسط الجنة وأعلاها في جنة الفردوس بمشيئة الله سبحانه وتعالى من ناحية أخرى ، قال تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (آل عمران /١٣٩)

خاتمة :

وبعد أن آلت الدراسة الحالية إلى نهايتها , بعد أن أوضحت مفهوم الإعاقة الحقيقية لدى الإنسان واختلافها عن مفهوم الإعاقة التقليدية وتصنيفاتها المتنوعة ، وكذا مفهوم الابتلاء وخصائصه ومبادئه في ضوء القرآن الكريم ، وأن الإعاقة نوع من الابتلاء يتطلب الصبر الجميل ودفع البلاء قدر المستطاع ، مع توضيح خصائص الطبيعة الإنسانية فيما يتعلق بقضية الابتلاء بالسراء والضراء ، والمتطلبات التربوية التي يمكن لأسر الأطفال المعوقين أن تستخدمها في مواجهة ابتلاء الإعاقة في ضوء القران الكريم .

كما يود الباحث أن يعترف بأنه قدم كل ما عنده من فكر وجهد في هذه الدراسة المتواضعة حتى اللحظة التاريخية الراهنة , كما يرى الباحث أن قضية الإعاقة كابتلاء أكبر وأعمق من أن تشملها دراسة تربوية واحدة , والأمل معقود على إجراء مزيد من البحوث والدراسات حول هذه القضية المحورية , استكمالا لمشوار الدراسة الحالية التي لم تستطيع أن تحيط بجميع زوايا ومضامين قضية الإعاقة كابتلاء لدى أسر الأطفال المعوقين في ضوء القرآن الكريم

كما أن الباحث يؤمن بحقيقة أن في البحث العلمي والاجتهاد الشخصي احتمالات السهو والخطأ والصواب والنسيان , فالكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، ولهذا فإن الباحث يرجو أن ينال – بهذا الدراسة – على الأقل ثواب الاجتهاد ، والله من وراء القصد ويهدي إلى سواء السبيل .

(إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

(هود /٨٨) صدق الله العظيم

المراجع والهوامش

١- القرآن الكريم .

٢- الحديث الشريف .

٣- أشرف صبري محمد على : دراسة اتجاهات الآباء نحو أبنائهم المتخلفين عقليا وعلاقة تلك الاتجاهات بسلوك أبنائهم التكيفي بمدينة أسيوط ماجستير غير منشورة ، كلية التربية – جامعة أسيوط ، ١٩٩١م

٤- أحمد عبد السلام أبو الفضل : التوكل على الله وفضيلة المتوكلين " الطبعة الأولى ، دار النشر للثقافة والعلوم ، طنطا – مصر ٢٠٠٤م .

٥-أحمد كمال الدين عفيفي ، على العزب على نصر : القرآن وثنائيات الكون والحياة ، الطبعة الأولى ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

٦- السيد سعيد الخميسي : الإعاقة عند الأبناء كمواقف شدة وتأثيرها على بعض المتغيرات النفسية للوالدين ، ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٩٧م .

٧- آمال عبد السميع باظة : " الأطفال والمراهقون المعرضون للخطر من ذوي الاحتياجات الخاصة " المؤتمر العلمي الثاني لمركز رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة (تربية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في الوطن العربي – الواقع والمستقبل) في الفترة من (٢٤-٢٥/٣/٢٠٠٤م) .

٨- إيمان فؤاد كاشف : " دراسة لبعض أنواع الضغوط لدى أمهات الأطفال المعاقين وعلاقتها بالاحتياجات الأسرية ومصادر المساندة الاجتماعية " مجلة كلية التربية – جامعة الزقازيق العدد (٣٦) ، ٢٠٠٠م .

٩- إيمان فؤاد كاشف : " الإعاقة العقلية بين الإهمال والتوجيه " دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠١م .

١٠- ----------: " التدخل المبكر لرعاية الطفل المعاق – مدخل إرشادي للأسرة " المؤتمر العلمي الثاني لمركز رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة ، مرجع سابق .

١١- جاسر خليل أبو صفية : كلمات من القرآن . الطبعة الأولى ، دار الجوهرة ، عمان ، ٢٠٠٣م .

١٢ – جمال الخطيب : مقدمة في الإعاقة السمعية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،عمان – الأردن ، ١٩٩٨م .

١٣- حمدي محمد شحاته : اتجاهات الوالدين نحو أطفالهم الصم وعلاقتها بمفهوم الذات لدى هؤلاء الأطفال ، رسالة ماجستير غير منشورة معهد الدراسات العليا للطفولة – جامعة عين شمس ١٩٩٣م .

١٤- زينب محمود شقير : نداء من الابن المعاق ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ٢٠٠٤م .

١٥- زيدان أحمد السرطاوي : " أثر الإعاقة السمعية للطفل على الوالدين وعلاقة ذلك ببعض المتغيرات " مجلة العلوم التربوية ، المجلد الثالث ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٩٩١م .

١٦- سعيدة محمد أبو سوسو : " رعاية الطفل المعوق وذوي الاحتياجات الخاصة في الإسلام وعلم النفس " ، المؤتمر العلمي الثاني لمركز رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة ، مرجع سابق .

١٧- سعدي أبو جيب : المعوق والمجتمع في الشريعة الاسلامية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢ م.

١٨- شاكر عطية قنديل : " الإعاقة كظاهرة اجتماعية " المؤتمر السنوي لكلية التربية – جامعة المنصورة (نحو رعاية نفسية وتربوية أفضل لذوي الاحتياجات الخاصة في الفترة من ٤- ٥ ابريل ٢٠٠٠م .

١٩- عبد العزيز السيد الشخص ، نبيل عبد الفتاح حافظ " جدوى برامج المشاركة الوالدية في تربية ذوي الاحتياجات الخاصة وتأثيراتها التربوية والاجتماعية والنفسية ، المؤتمر العلمي الثاني لمركز رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة ، مرجع سابق .

٢٠ – عبد العزيز السرطاوي ، كمال سالم سالم : كيفية تشجيع أولياء أمور المعوقين في برامج التربية الخاصة ، رسالة الخليج العربي ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٩٨٦م ، ص٣ .

٢١- فاروق محمد صادق : " الإعاقة العقلية في مجال الأسرة – مراحل الصدمة والأدوار المتوقعة للوالدين " ، المؤتمر القومي الأول للتربية الخاصة (المجموعة الثالثة) ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٥ م .

٢٢- محمد عباس يوسف : دراسات في الإعاقة وذوي الاحتياجات الخاصة . الطبعة الأولى ، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

٢٣- مصطفى محمد رجب : " الأصول الإسلامية لتربية الأطفال المعوقين " المؤتمر العلمي الثاني لمركز رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة (تربية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في الوطن العربي – الواقع والمستقبل) مرجع سابق .